A.U.B. LIBRARY

AMERICAN
UNIVERSITY OF
BEIRUT

A.U.B. LIBRARY

الأب يوحنا قمير
أستاذ الفلسفة العربية في جامعة القديس يوسف

181.07
G411Y9uA
V.2

الغزالي

دراسة - مختارات

الجزء الثاني

حقوق النقل والترجمة واعادة الطبع
محفوظة للمؤلف

في حياة الغزالي احداث خارجية ، وتبدل آفاق ، وفيها هزّات داخلية ، عقليـة ونفسية ، وفي كل ذلك التباس في النيّات ، وشك في صدق الرواية . وانا قد عرضنا لكل ذلك في الجزء الاول من دراستنا . اما في هذا الجزء ، فنرى ما هو اهدأ واوضح ، نرى اهم اراء الغزالي كمتكلم ، ثم كصوفي ، ونتبع كل ذلك بمختارات مناسبة .

المتكلم

كان الغزالي متكلماً ، يوم كان استاذاً في بغداد ، يوم كان يكتب في عقيدة السنة ويدافع عنها . وظل الغزالي المتصوف اميناً لتلك العقيدة لا يرى في امام الباطنية معلماً معصوماً ، وينبذ ما في مذاهب الفلاسفة من كفر ومن ضلال .

ان الغزالي ، يوم تصوف ، قد حط من شأن علم الكلام ايثاراً لعلم المكاشفة ، ولكنه لم يطرح عقائد علم هي عقائد الاسلام نفسه !

لهذا نحن نستخلص اراءه في الكلام من مختلف كتبه ، صوفية كانت او غير صوفية ، ونبسطها لك في ابرز خطوطها .

❖❖❖

قالت الاشعرية بقصور العقل عن ادراك كل حقائق الوحي ، وبالتالي اقتصدت في تأويل الشرع ، وحكمت على العقل بالاذعان والايمان ، مهما نفر من ذاك او استنكر .

واصطدمت الاشعرية بتعليم الباطنية من جهة ، ونظريات الفلاسفة من جهة اخرى ، فكان على الغزالي ان يدافع عنها ضد هاتين الفرقتين .

❖❖❖

رأت الباطنية ان الاراء ابداً متضاربة ، والعقول متنازعة ، فحكمت ببطلان العقل ، وقالت بضرورة امام معصوم يبتّ في الخلاف ، ويفصل في النزاع ، كي لا تفسد العقيدة ، ويلتبس الحق على الناس .

وائمة الباطنية المعصومون سبعة اولهم عليّ ، وسابعهم اسماعيل (+ ٧٦٢م) بن جعفر الصادق . واسماعيل هذا حيّ لا يموت ، وغائب لا يُرى ، قد بثّ في الناس دعاة يهدون ويرشدون . وان اختلف الدعاة

في امر ، او أغلق عليهم مشكل ، عادوا الى الامام واسترشدوه.

ورأى الغزالي عجز العقل ، كما رأوا ، وضرورة الامام المعصوم ، انما لم يسلّم بامام سوى النبي. اجل ان النبي ميت ، ولكن امام الباطنية غائب ، يستحيل الوصول اليه عند الحاجة . ثم ما علّم هذا الامام ؟ ان اخوان الصفاء ادّعوا شيئاً من هذا العلم ، انما حاصل ما ذكروه « شيء من ركيك فلسفة فيثاغورس[1] . » ثم هل ازال هذا الامام خلافاً ؟ وعلى رأس الائمة ، هل ازال الخلاف ، ام هو زاده وقوّاه ؟ وهل يستطيع امام ما عجز الانبياء انفسهم عنه ؟

ويستنبط الغزالي من القرآن موازين — هي في حقيقتها انواع من الاقيسة المنطقية — ويعرضها في كتابه « القسطاس المستقيم » ، ويأخذ على نفسه اقناع الناس بها ، وهديهم الى الحق ، اذا نبذوا التعصب لمذاهبهم ورامو الاصغاء اليه.

وفي ردّ الغزالي هذا على الباطنية ترى امورًا : ترى تعلقه بالسنة ورفض عقيدة شيعية ، وترى اخلاصه للسلطان القائم ضد الاعداء المناوئين ، وترى تعجيزه للعقل وضرورة الوحي ، وترى تأثره بالفلسفة في اقيسة يستنبطها من القرآن ، وترى اعتداده بنفسه اذ يدّعي القدرة على اقناع من يصغي اليه ، وازالة كل خلاف !

اما نحن فنرى ، مع الباطنية ، ضرورة امام معصوم ، اذا اراد الله سلامة وحي من الضلال. ونرى ان غياب الامام ليس كموته ، لانه يمكن الوصول اليه لتقرير العقيدة ، او البتّ في مبادئ الاخلاق . ونرى اخيرًا انه اذا استحال على الامام ازالة كل خلاف بين الناس ، فيكفيه ان يزيله بين من اتبعوه ، وان يكون منارة لكل مخلص في طلب النور. على ان المشكلة الاساسية في كل هذه المسألة انما هي اثبات عصمة

---

١) المنقذ : ص ١٢٠

الامام، استناداً الى وعد الهي راهن، وهذا ما لم يفطن له الغزالي، او تأتِ به الباطنية . ويبقى، بعد ذاك، ان يكون هذا الامام حياً، وان نعلم مكانه ونستطيع به اتصالاً.

واما الفلاسفة فخالفوا الاشعرية في حدّها من قدرة العقل. لقد زعموا على حد تعبير ابن خلدون، «ان الوجود كله، الحسي منه وما وراء الحسي، تدرك ذواته واحواله، باسبابها وعللها، بالانظار الفكرية، والاقيسة العقلية، وان تصحيح العقائد الايمانية من قبل النظر، لا من جهة السمع، فانها بعض من مدارك العقل.»[1] واذاً الفيلسوف بغنًى عن تعاليم الشرع، واذاً تأويل الشرع ضروري، ما دام لا يتفق واحكام العقل.

وان الغزالي قد درس فلسفة الفارابي وابن سينا، وبسطها بوضوح في «مقاصد الفلاسفة»، ثم حمل عليها في كتاب «تهافت الفلاسفة.»

وقسم الفلاسفة، في كتاب المنقذ، ثلاثة اقسام: دهريين جحدوا الله، وطبيعيين آمنوا بالله، انما انكروا خلود النفس واليوم الاخر، وآلهيين امنوا بالله والآخرة، انما كفروا بعقائد، وضلوا في حقائق، ووهنوا في ادلة.

اما الدهريون والطبيعيون فزنادقة، لأنهم انكروا حقائق ايمانية، «واصل الايمان هو الايمان بالله واليوم الاخر.»[2]

واما الالهيون ففلسفتهم اقسام ستة: رياضية، ومنطقية، وسياسية، وخلقية، وطبيعية، والهية. وتتفاوت صلة هذه الاقسام باصول الدين.

اما الرياضيات فعلم صحيح، لا صلة له بالدين، انما لا يظنّ ظانّ ان

---

١) فلاسفة العرب : ٣ : ص ٨١

٢) المنقذ : ص ٨٧

علم الفلاسفة في كل شيء برهاني كعلمهم بها ، ولا يتطرفن مسلم جاهل ، فينكر صحة الرياضيات في ما ينكر من علوم الفلسفة عامة .

واما المنطق فلا يتعلق بالدين ايضاً ، وهو علم صحيح ، من جنس ما ذكره المتكلمون في الادلة ، انما تراخى الفلاسفة في التقيد بقوانينه ، حين تعرضوا للامور الدينية ، فلا يخدعنّ مسلم بدقة منطقهم .

واما السياسيات فانما « اخذوها من كتب الله المنزلة على الانبياء ، ومن الحكم المأثورة عن سلف الانبياء »[1] ، فلا ضلال فيها ولا ضرر .

واما العلوم الخلقية فاخذوها من كلام الصوفية . لقد كان « في كل عصر جماعة من المتألهين ، لا يُخلي الله العالم عنهم ، فانهم اوتاد الارض ، ببركاتهم تنزل الرحمة الى اهل الارض .[2] » فعلى العاقل الّا يرفض ما في كتبهم من حق ، لمجاورته الباطل ، كما عليه الا يقبل باطلهم ، مخدوعاً بما جاوره من حق .

واما الطبيعيات فليس من شأن الدين انكارها الا في مسائل معينة .

واما الالهيات ففيها اكثر اغاليط الفلاسفة . وقد ردّ الغزالي هذه الاغاليط الى عشرين اصلاً ، بدّع الفلاسفة في سبعة عشر منها ، وكفرهم في ثلاثة ، في انكارهم حشر الاجساد ، وفي نفيهم علم الله بالجزئيات ، وفي قولهم بقدم العالم وازليته .

❖❖❖

هذه نظرة عامة للغزالي في الفلسفة ، رأيت فيها تقسيماً مفصّلاً لفروع الفلسفة ، ورأيت فصلاً بين ما يتصل بالدين وما لا يتصل ، ورأيت سذاجة في ارجاع علم السياسة والاخلاق الى مصادر صوفية او نبوية .

وانا لن نعرض لك كل جدال الغزالي للفلاسفة ، كل ما بدعهم به

---

١) المنقذ : ص ٩٩

٢) المنقذ : ص ١٠٠

وكفّر ، وانما نكتفي ببسط عقيدته الكلامية ، متطرقين في بعضها الى ما نعاه على الفلاسفة ، ملتين هكذا بكتاب « التهافت » المامة سريعة ، على ان نعود اليه في دراسة مستقلة ، ان يسر الله .

❖❖❖

وان الغزالي قد درس ، في علم الكلام ، ذات الله وصفاته وافعاله ، ثم تطرق الى اثبات النبوّة ، وضرورة الامامة ، والى ما جاء في الحشر والنشر ، والى من يجب تكفيره او لا يجب . وانّا نقتصر على اهم هذه المسائل فندرس تباعاً : وجود الله ، ثم صفاته ، ثم افعاله ، ثم النبوة ، ثم الحشر .

١ ـ وجود الله

ان الانسان مجبول في فطرة عقله على معرفة الله . وانه اذا رأى ما في خلق الله من ترتيب محكم ، وامر عجيب ، اقرّ بضرورة صانع يدبر ، وفاعل يدير ويقدر .

وللغزالي ، غير ذاك ، برهان طويل نوجزه لك في ما يلي :

ان لكل حادث سبباً ، يخصص وقت حدوثه ، دون ما قبله وما بعده .

وان العالم الجسماني حادث ، فله اذاً سبب .

اما برهان حدوث الاجسام فحاصل من انها لا تخلو من الحوادث ، من الحركة والسكون ، وهما متعاقبان حادثان . فلو لم تكن الاجسام حادثة ، لما كان للحركة والسكون اول ، وكان عدد من الحركات لا نهاية له ، وهو محال .

اذاً الاجسام حادثة ، ولها سبب هو الله .

واذاً قد ضلّ الفلاسفة ، اذ قالوا بقدم العالم ، لا بل كفروا اذ خالفوا تعليم الشرع في ذلك .

فالغزالي ، كما رأيت ، يستند في اثبات وجود الله الى ما في العالم من نظام عجيب ، والى ضرورة حدوث الحركة ، فينتهي الى محدث اوّل ، هو سبب العالم ومنظمه .

ب ــ صفات الله

في الله ذات وصفات .

وبعض الصفات غير زائد على الذات ، وبعضها زائد .

اما ما ليس زائداً على الذات ، فاليك بعضه :

ان الله ازلي ، ليس لوجوده اوّل ، ابدي ليس لبقائه اخر .

وان الله واحد ، لا شريك له . ذاك انه لو قدّر لله شريك ، لكان مثله في كل الوجوه ، وذاك محال ، لأن كل اثنين ضرورة متغايران . ولو جاز وجود اثنين دون مغايرة ، « لجاز ان يشار الى انسان واحد ، ويقال انه انسانان ، بل عشرة ، وكلها متساوية ، متماثلة . »[1]

وان الله مرئي في الاخرة بالابصار ، خلافاً لما زعم المعتزلة ، وان يكن لا جسم له ولا جهة . ذاك انّا لن نرى الله ، كما نرى الاجسام والالوان ، وانما الرؤية نوع من الادراك ، اتم من العقل واوضح ، لا يحيلها العقل ، ويقرها الشرع .

❖❖❖

اما الصفات الزائدة على الذات فسبع : القدرة ، والعلم ، والحياة ، والارادة ، والسمع ، والبصر ، والكلام .

---

١) الاقتصاد في الاعتقاد : ص ٣٦

ان هذه الصفات ليست هي الذات — كما ادّعى المعتزلة والفلاسفة — بل هي زائدة عليها ، قائمة بها . ان الله قادر بقدرة ، عالم بعلم ، حيّ بحياة . . . لا قادر بذاته ، عالم بذاته ، حي بذاته . .

ذلك ان المفهوم من قولنا عالم ، مثلاً ، غير المفهوم من قولنا موجود ، فعلم الله اذاً غير وجوده ، وانما هو صفة زائدة على الوجود . وكذلك مفهوم قولنا قادر غير مفهوم قولنا عالم ، واذاً العلم غير القدرة . فالصفات متميزة بعضها عن بعض ، متميزة عن الذات .

واذاً هل هذه الصفات هي غير الله ؟

لا يقال ان هذه الصفات غير الله ، ولا يقال انها الله ، لان الله ذات وصفات ، وكأن الصفات بعض ، والله كل ، وكلّ بعض فليس غير الكل ، ولا هو بعينه الكل .»[1]

ولا تظنّ الغزالي يعتقد التركيب في الله ، وانما يعني ان مفهوم الصفات غير مفهوم الذات ، كما ان مفهوم صفة غير مفهوم الصفات الاخرى ، وهذا يعني ان عقلنا يميز بين الذات والصفات ، وبين صفة وصفة . ويحجم الغزالي عن تحديد ما يستند اليه العقل في هذا التمييز .

ونحن نرى ان الصفات غير متميزة في الحقيقة عن ذات الله ، او بعضها عن بعض ، لانّ كل صفة الهية لامتناهية ، حاوية في الحقيقة لكل ما يحويه الله ، فالقدرة مثلاً ، هي ايضاً علم وارادة وحياة . . . انما اذا نظر اليها العقل من ناحية خاصة ، فيميزها عن الذات ، ويميزها بعضها عن بعض فهكذا اذا نظر الى القدرة ، من حيث هي قدرة فقط ، ميّزها عن الذات ، من حيث هي ذات ، وعن العلم ، من حيث هو علم . . . فالتمييز اذاً غير حاصل في الله قبل توسط العقل ، حاصل في

---

١) الاقتصاد في الاعتقاد : ص ٦٤

العقل المحدود اذ ينظر الى اللامتناهي ، ناتج عن هذه الوحدة السحيقة بين ادراكنا الضعيف واللانهاية الالهية .

❖❖❖

ولنتوقف الان قليلًا على بعض هذه الصفات على القدرة ، والعلم ، والارادة .

❖❖❖

اما علم الله فيتسع في رأي الغزالي الى كل معلوم ، موجود او ممكن الوجود ، الى معرفة ذاته ، ومعرفة كل مخلوقاته .

ويتفق الغزالي في هذا والفلاسفة ، على انه يخالفهم في شرح كيفية العلم الالهي .

لقد قال الفلاسفة ان علم الله بالاشياء واحد ، لا متغير . واذًا الله يعلم الاشياء لا علمًا زمانيًا جزئيًا ، بل علمًا ازليًا كليًا ، اي انه يعلمها ، لا عند حدوثها ، وفي ذاتها ، بل في الازل ، وفي ذاته،علة كل شيء . ان الفلكي ،وقد عرف نظام الافلاك ، يعرف كل كسوف مستقبل ، وزمان حدوثه . وان الله ، علة العالم ، وعلة ما فيه من نظام ضروري ، يعلم في ذاته ، وفي الازل ، كل سلسلة الاسباب والمسببات ، التي ستصدر عنه .

ورأى الغزالي ان هذا النوع من العلم يقتصر حتمًا على معرفة الكليات ، على معرفة ما هو الانسان المطلق ، وما هي عوارضه وخواصه، ولا يتسع الى معرفة الاشخاص باعيانها ، الى معرفة زيد بعينه ، مثلًا ، وما يصدر عنه من خير ومن شر . وان هذا استئصال للشرائع الالهية، وانه كفر ذميم .

ويسلّم الغزالي بان علم الله بالاشياء واحد ، لا متغير ، وانما يعلمها قبل حدوثها ، وعند حدوثها ، وبعد حدوثها . ان حال المعلوم ، قبل حدوثه ، غير حاله عند حدوثه ، غير حاله بعد حدوثه . وان الله يعلم

هذه الاحوال الثلاثة بعلم واحد ، ازلي ، لا متغير ، لان احوال المعلوم اضافات زمانية ، لا يتغير العلم اذا تغيرت ، كما ان الشخص الواحد يكون عن يمينك ، ثم قدامك ، ثم عن يسارك ، فتتعاقب عليك الاضافات ، والمتغير ذلك الشخص ، لا انت .

ونرى ان الفلاسفة قد جعلوا علم الله بالاشياء نوعاً من الاستنتاج ، سيما حين قارنوه بعلم الفلكي ، فبدا ان الله يستنتج وجود الاشياء من معرفته اسبابها ، وهو علم لا يجوز في حقه .

على ان الغزالي قد جاوز فكرة الفلاسفة ، وافسد رأيهم ، اذ جعل الله ، في نظرهم ، يجهل الاشياء باعيانها ، لانهم قالوا انه لا يعزب عنه مثقال ذرة مما في السماوات او في الارض .

وان شرح الغزالي ، بعد ، لناقص ، لاننا لم نرَ فيه هل يعلم الله الاشياء في ذاته ، ام في ذاتها .

ان الله يعلم كل شيء ، ويعلمه كما هو . انما علمه غير معلول للاشياء كعلمنا ، وغير استنتاجي . انه علم ازلي ، واحد ، لا يتغير مع الاشياء والازمنة ، لان كل شيء ماثل لديه في نظرة واحدة الهية ، تصل الازل بالابد ، وترى كل ما يجري بينهما . واذاً لا يعلم الله الاشياء في ذاتها ، عند حدوثها ، بل في ذاته ، وفي الازل .

وان كيفية علم الله ، اذا تطرقنا الى كل ما تفترضه من مشاكل ، لسر مجهول ، يتلعثم في شرحه اللسان ، ويكلّ العقل . وهل عرفنا بعد كيف نعلم نحن ، فنجاري غرورنا ونشرح كيف يعلم الله ؟ الا اسمعوا ما يقوله القديس اغسطينوس : « لا تنتظروا ، اخوتي ، ان اشرح لكم كيف يعلم الله . شيئاً واحداً اعرف ، وهو انه لا يعلم كالانسان ، ولا يعلم كالملاك . اما كيف يعلم ، فامر اشفق من شرحه ، لاني اعجز من ان اعرفه . »

وان التكفير في هذه المسألة لاعتداد بالعقل ، وتطرف كبير.

❖❖❖

واما قدرة الله ، فاليك بعض اراء الغزالي فيها.

ان الله قادر على كل شيء ، خالق لكل شيء ، للجواهر والاعراض ، للكائنات واعمالها . ويذهب الغزالي الى ابعد استنتاج فيقول بان الله هو السبب الوحيد لكل عمل في الجماد ، ولكل قدرة وفعل في الحيوان والانسان.

ليست النار ، مثلاً ، سبباً لاحتراق القطن ، بل الله هو السبب . ان ملاقاة القطن للنار شرط في الاحتراق ، وقد اتخذها الله سنة الا يحرق القطن الا عند ملاقاة النار ، ولكنه يستطيع خرق هذه السنة فتكون المعجزات . وان الفلاسفة قد ضلوا ، اذ نسبوا السببية للمحسوسات ، وقالوا بضرورة اقتران السبب بالمسبب ، فنفوا المعجزات ، او جعلوها قدرة طبيعية في بعض النفوس . ان المعجزة فعل الله.

وان الله سبب الاعمال في الحيوان ، والا من اين كان للعنكبوت ، مثلاً ، ان تنسج من البيوت غرائب الاشكال ، وللنحل ان « تشكل بيوتها على شكل التسديس ، فلا يكون فيها مربع ولا مدور »[1] ، ولولد الهرة ان يدب الى ثدي امه وهو مغمض العينين ؟

وافعال الانسان ما شأنها ؟

ان افعال الرعدة مقدورة لله ، لانها تصدر عن الانسان دون سابق ارادة او علم ، ولانه عن دفعها عاجز.

وان الافعال الاختيارية مقدورة ايضاً لله.لانها حادثة ، وكل حادث خلق له . وبين افعال الرعدة والافعال الاختيارية فرقان : الفرق الاول

---

١) الاقتصاد في الاعتقاد ص ٤٢

هو ان الله يخلق افعال الرعدة دون ان يخلق القدرة عليها ، بينما يخلق القدرة على الافعال الاختيارية قبل ان يخلقها . والثاني هو ان افعال الرعدة لا يسبقها معرفة او تردد ، ويسبق الافعال الاختيارية تردد عقلي في افضل المتقابلين .

ويحلل الغزالي الفعل الاختياري على الوجه التالي : ان العقل يتردد احياناً في خيرية الفعل ويختار ، ويظل متردداً حتى يتميز ان الخير في الفعل او الترك ، وحينئذ تنبعث الارادة ضرورة ، ويكون الفعل . واعلم ان حكم العقل نفسه يحدث جبراً . فالانسان مجبور على الاختيار .

والفعل بعد ليس خلقاً للانسان ، بل لله ، الذي يخلق الفعل بعد القدرة ، والقدرة بعد الارادة ، والارادة بعد العلم .

وما علاقة قدرة الانسان اذاً بالفعل ، وما معنى التكليف ؟

ان الفعل ، في نظر الغزالي ، متعلق بقدرتين ، قدرة الله وقدرة العبد ، على انه متعلق بقدرة الله تعلق المسبب بالسبب ، متعلق بقدرة العبد تعلق المشروط بالشرط . ويجادل الغزالي طويلاً في امكان افتراض قدرة للعبد ، لا تتعلق بالمقدور تعلق التأثير والايجاد ، ويقر بانها قدرة بالعجز اشبه ، مهما اضيفت الى قدرة الله .

اما التكليف فغايته التخويف . والخوف سبب لترك الشهوات ، سبب للنجاة ، والله مسبب الاسباب ومرتبها . فاهل الجنة مقودون الى الجنة بسلاسل الاسباب ، وهو تسليط العلم والخوف عليهم ، واهل النار مقودون الى النار بالسلاسل ، وهو تسليط الغفلة والامن عليهم ، وكلهم الى ما يساق مقهور .

وكل ذلك بعدُ عدل من الله ، وليس في الامكان احسن منه او اتم . لولا الليل لما عرف قدر النهار ، ولولا المرض لما عرف قدر الصحة ، وكذلك لولا النار لما عرف اهل الجنة قدر الجنة . ما لم يخلق الناقص ، لم يعرف الكامل ، فمقتضى الجود والحكمة خلق الكامل والناقص جميعاً .

فالغزالي، كما رأيت، يتفق والفلاسفة على القول بالجبر، وان اختلفوا في التعليل.

وانه يخالف المعتزلة، الذين قالوا بحرية الانسان، وبان فعله خلق له وحده، لا علاقة به لله.

اما نحن فنرى ان المخلوقات اسباب حقيقية لافعالها، وان الله سبب حقيقي لهذه الافعال. لا معنى لموجود لا فعل له، ولا وجود الا بايجاد الله. ان فعل الانسان معلول له، ومعلول لله ايضاً، انما على تفاوت في السببية، فالله يعمل كعلة اولى، والانسان كعلة معلولة. ان فعل المخلوق تابع لوجوده: ان وجودنا من الله، به حدث، وبه يدوم، وان وجودنا ليس وجود الله. كذلك فعلنا، فانه فعل الله، وفعلنا ايضاً. اما اذا شئت ان تعرف كيف يتوارد سببان على فعل واحد، وكيف يظل الفعل الانساني حراً على الرغم من ايجاد الله له، فنظنك تجاوز حدك. ذاك ان الايجاد الالهي خارج عن نطاق مداركنا، لا جارحة تحسه، او وجدان يخبره، وان الكيفيات الالهية اجمالاً تفوق ادراكنا المحدود، فاكتفِ بطرفي السلسلة، بان تعرف ان الله خالق كل شيء، وبان الانسان حرّ، خالق لاعماله.

ونرى، بعد ذاك، ان ما يجري في هذا العالم من شر لناتج عن تلك الهبة السامية، عن الحرية، التي بها صار للفعل جزاء، وان ملاشاة الحرية لشر اكبر، لا يشتهيه عاقل.

❖◆❖

واما ارادة الله فقد اختلف الغزالي والفلاسفة في شرح تعلقها بالمراد، او بايجاد العالم بنوع عام. قال الفلاسفة ان الله بارادة قديمة اوجد العالم، وان العالم معلول قديم. وقال الغزالي ان الله بارادة قديمة اوجد العالم في الوقت الذي وُجد فيه، وان الارادة قد ميزت وقتاً ما عن غيره من

الاوقات المتماثلة ، لان الارادة صفة من شأنها تمييز الشيء عن مثله خلافاً لما زعم الفلاسفة .

وجدال الغزالي للفلاسفة يطول ، فانه يستغرق فصولاً من كتاب « تهافت الفلاسفة » .

وان مسألة الارادة هذه هي مسألة قدم العالم وحدوثه ، وكل ما دار حول هذه المشكلة من جدل . ولب الجدال يعود الى هذا : الفلاسفة يقولون بارادة قديمة ، وبالتالي بفعل قديم ، يستحيل تراخي المفعول عنه ، والغزالي لا يحيل تراخي المفعول عن الفعل ، انما يحيل وجود عالم قديم ، لانه يحيل وجود حوادث لا اول لها ، ولا نهاية لعددها . وما ننوي الان ان نتوقف على هذه المسألة .

ج ــ افعال الله

يتوقف الغزالي ، في الكلام عن افعال الله ، على صفة اساسية ، هي حق التصرف المطلق في عباده ، او ما يمكن تسميته التجويز . فهكذا يجوز لله :

١ ــ الا يخلق الخلق ، واذا خلقهم الا يكلفهم . وقالت طائفة من المعتزلة بوجوب الخلق ، والتكليف بعد الخلق .

٢ ــ ان يكلف العباد ما يطيقون وما لا يطيقون . وذهبت المعتزلة الى انكار ذلك .

٣ ــ الا يراعي الاصلح لعباده ، بل له ان يفعل ما يشاء ، ويحكم بما يريد . وقالت المعتزلة برعاية الاصلح .

٤ ــ الا يثيب على طاعة ، والا يعاقب على معصية ، بل ان شاء اثاب ، وان شاء عاقب ، ولا يبالي لو غفر لجميع الكافرين ، وعاقب جميع المؤمنين ، وان الصفح بالله اولى . وقالت المعتزلة بوجوب ثواب الطاعة ، وعقاب المعصية .

وحجة الغزالي في كل ذلك ان الواجب والحسن والقبيح الفاظ اخطأ الناس معناها .

ان الواجب ما في تركه ضرر ، والحسن ما وافق غرض الفاعل ، والقبيح ما نافى ذاك الغرض . وان الله بمأمن من الضرر ، منزه عن الاغراض ، واذاً لا واجب عليه ، ولا حسن في حقه او قبيح .

ونحن نرى ان هذه التحاديد ناقصة ، فاسدة .

اجل ان الله خلق العالم مختاراً ، وانه راعى الصالح في الاكثر ، لا الاصلح ، وانما هناك اشياء تقضي بها طبيعة الله ، وطبيعة الانسان . يأبى العقل ان يكون هذا الانسان الحر العاقل ، والا يكون مقيداً بطبيعته العاقلة ، بخير يعمله ، وشر يتقيه ، نزل وحي بذلك ام لا . ان الله ، حين يخلق الانسان ، يريده انساناً يعمل ما يقتضيه الكمال الانساني نفسه ، ولا بد اذاً من ثواب وعقاب . وان ارادة الله هذه لارادة ضرورية ، ناتجة عن حكمة الله في خلقه . واذا التكليف واجب ، والثواب والعقاب واجبان . اما تكليف الخلق ما لا يطيقون فمنافٍ لكمال الله ، منافٍ للعقل ، وانها لحماقة لا يقدم عليها بشر ، فكيف بالله العادل الحكيم ؟

د ــ النبوة

النبوة طور وراء العقل ، نبصر فيه غيباً ، ونرى آتياً ، ونطلع على مجهول . وان تشك في النبوة ، فلك عليها قرائن وادلة . ان النائم يدرك الغيب ، والنوم انموذج من خاصية النبوة . وان علم الطب والنجوم لأبعد من ينالها عقل ، وانما نيلا بالهام ، وعلمها انبياء ! وان ادوية القلوب المرضى ــ كادوية الاجسام ــ لا تدرك ببضاعة العقل ، بل بنور النبوة ، بما سنه الانبياء من عبادات ، ويرشدون اليه من تقى . وان معجزات الانبياء ، اذا قارنها في النبي خلق سليم ، وهدي مصيب ،

واذا رافقتها القرائن ، وسندتها الدلائل ، تورث في النفس يقيناً ، وتقوى على ما يوردون ضد المعجزات من اشكال الكلام ، ومن شبهات السحر والاضلال .

ولك الى اثبات النبوة سبيل آمن من كل ذاك ، من كل معجزة وقرينة ، وكأنك تشاهد بالعين ، وتأخذ باليد ، هي سبيل الذوق عن طريق سلوك الصوفية .

ان الالهام الصوفي نوع من الوحي ، اذا بلغته ، ادركت جوهر النبوة . وان الفرق بين النبي والصوفي هو ان النبي يرى بوضوح ما يلمحه الصوفي لمحاً . ان الالهام اضعف من الوحي ، كما ان الرؤيا اضعف من الالهام . الوحي حلية الانبياء ، والالهام حلية الاولياء . على ان الوحي قد انقطع ، وباب الرسالة انسد ، اما باب الالهام فلا ينسد ، ومدد نوره لا ينقطع .

واذاً للانسان الى المعرفة طريقان : بشري ورباني . اما الطريق البشري فهو طريق العقل ، يسير على نوره ، وينمو بالتعلم والتفكر . ولكن العقل عاجز في ادراكه الحق ، عرضة للضلال ، هدف للشبهات ، غير واثق من ذاته . وهو ، فوق ذاك ، لا يقوى على هداية ، او يستطيع للقلوب شفاء ، وعن المعاصي زجراً ، وللاهواء ردعاً . وبالتالي لا يستطيع العقل بذاته ثقة ، وللحق ادراكاً ، والى الخير سبيلاً ، واذاً هو بحاجة الى نور الهي ، يعيد اليه الطمأنينة ، ويهديه الصواب ، ويرشده التقى .

٥ ـ الحشر

قبل البحث في حشر الاجساد ، يثبت الغزالي هذا المبدأ : اذا اثبت الشرع امراً ، ورآه العقل جائزاً ، او لم يقض باستحالته ، وجب التصديق

به . اما ما اثبته الشرع ، واحاله العقل ، فيجب تأويله ، لان الشرع لا يعلم محالا .

اما الحشر فقد اثبته الشرع ، ولا يقضي العقل باستحالته ، لان ما امكن خلقه ، يمكن اعادته . وعليه يجب التصديق بحشر الاجساد ، ويجب تكفير الفلاسفة الذين انكروه .

وكان من حجج الفلاسفة ، في انكار الحشر ، ان عودة الجسم بعينه محال ، لانه قد تحول في اوقات مختلفة ، الى اجسام مختلفة . وكان الغزالي ، في كتاب التهافت ، قد فند هذا الاعتراض ، بقوله ان النفس تعود الى مثل بدنها ، لا الى نفس بدنها . اما في كتاب الاقتصاد ، فاليك ما يقول : « وقد اطنبنا في هذه المسألة ، في كتاب التهافت ، وسلكنا في ابطال مذهبهم تقرير بقاء النفس . . . وتقدير عود تدبيرها الى البدن ، سواء كان ذلك البدن هو عين جسم الانسان او غيره . وذلك الزام لا يوافق ما نعتقده ، فان ذلك الكتاب مصنف لابطال مذهبهم ، لا لاثبات المذهب الحق . ولكنهم ، لما قدروا ان الانسان هو ما هو باعتبار نفسه ، وان اشتغاله بتدبير كالعارض له ، والبدن آلة له ، الزمناهم ، بعد اعتقادهم بقاء النفس ، وجوب التصديق بالاعادة ، وذلك برجوع النفس الى تدبير بدن من الابدان .[1] » ولا يعرض الغزالي رأيه ، لانه يجره الى تعلقل في المعقولات ، لا تحتمله المعتقدات . ويظهر من ذلك امران : اولا انّ الغزالي ، في كتاب التهافت ، يحرص على الجدال ، والهدم ، اكثر مما يحرص على صحة البرهان . وثانياً انه يمتنع ، في كتب الكلام ، عن اظهار كل آرائه . وان هذا الاعتراف لهام في فهم كتب الغزالي ، والتعرف على خفايا ارائه .

---

١) الاقتصاد في الاعتقاد : ص ٩٦-٩٧

الصوفي

لقد حدثناك عن اهتداء الغزالي الى التصوف ، وأريناك كيف انصرف عن الفقه الى علم المعاملة ، وعن الكلام الى علم المكاشفة .

وفي علم المعاملة هذا ، ترى ما يجب على كل مسلم من الايمان بعقائد ، ومن القيام بفروض ، وما يصبو اليه كل متصوف من تطهير للقلب ، وتدرج في سلم الكمال .

ولسنا نعود ثانية الى بسط عقائد الايمان ، فقد رأيناها حين درسنا مذهب الغزالي في الكلام .

وانما نتوقف الآن على ما يقوم به السالك من فروض ، ويأتيه من مجاهدة ، نتوقف على عمل ، كل علم بدونه جنون .

وان هذا العمل متفاوت : منه تقوي عادي ، فرض على كل مؤمن ، ومنه صوفي كمالي ، يمارسه هواة الروح .

وان العمل التقوي يقوم باداء الفروض الاسلامية ، ويهدف الى طاعة الله ، ونوال ثوابه في الاخرة . وان العمل الصوفي يبغي فوق ذلك ، قرب النفس من الله ، واشعاع نوره فيها ، وتنعمها بما تحس وترى .

وان الغزالي قد بسط العمل التقوي في ربعي العبادات والعادات من كتاب الاحياء ، وانه قد عرض الكمال الصوفي في ربعي المهلكات والمنجيات من نفس الكتاب .

وانا لنتأثر الغزالي في عرضه هذا ، ملمين الماماً بفكرته الزاخرة الغنية ، منتجعين من كتاب الاحياء ، ومن باقي كتب الغزالي في التصوف .

- ١ -

يبحث الغزالي اولاً في الفروض الاسلامية من طهارة ، وصلاة ، وزكاة ، وحج ، وصيام ، مفصّلاً اعمالها الظاهرة ، متطرقاً الى اسرارها ، الى معانيها الروحية البعيدة.

اجل ان هذه الفروض لمن مباحث الفقه ، انما الغزالي يعود اليها ، في كتاب الاحياء والاربعين وغيرهما ، ليبعث فيها الحياة ، ويبث فيها الروح ، كي لا تبقى مجرد اعمال ظاهرة ، اقحلتها العادة ، واقتصر عليها المؤمنون. قال الغزالي ، في حديثه عن الصلاة : « وقد استقصينا في فن الفقه ، في بسيط المذهب ووسيطه ووجيزه ، اصولها وفروعها . . . ونحن الآن . . . نقتصر على ما لا بد للمريد منه من اعمالها الظاهرة ، واسرارها الباطنة ، وكاشفون من دقائق معانيها الخفية ، في معاني الخشوع والاخلاص والنية ، ما لم تجرِ العادة بذكره في فن الفقه[1] . »

واذاً ينظر الغزالي الى هذه الفروض نظرة صوفي ، ويدعو الى ممارستها ممارسة اعمق واكمل.

واذاً ليست الطهارة نظافة خارجية ، ونوعاً من الزينة ، بل هي فوق ذلك تطهير الجوارح عن الاثم ، وتطهير القلب عن الرذائل ، وتطهير السر عما سوى الله . واذاً الاقتصار في النظافة الخارجية على قدر الحاجة اولى ، وصرف الاوقات في تزيين الظواهر تضييع للعمر ، والزيادة في ذلك على اهل العلم والعمل امر منكر.

واذاً ليست الصلاة تحريك لسانٍ بكلام ، وحركة جسم بركوع ، بل هي حضور قلب ، وفهم الفاظ ، وهي تعظيم لله ، وهيبة منه ، ورجاء لثوابه.

---

١) الاحياء : ١ : ص ١٠٨

وقل مثل ذلك في باقي الفروض ، في الزكاة ، والحج ، والصيام.

❖❖❖

ويتدرج الغزالي الى بعض مظاهر تقوية ، كتلاوة القرآن ، وممارسة الذكر ، وسهر الليل للصلاة.

- ٢ -

على ان الحياة الدينية لا تقتصر على هذه الفروض الشرعية المحضة ، بل تتسرب الى كل مظاهر الحياة ، لتبث فيها روح الواجب ، وتصون الحقوق.

واذا الاكل حفظ للبدن ، او دافع للشهوة ، ان اغرق فيه انسان طغت عليه الاميال ، وان راعى فيه اصول الدين نال اجرًا .

واذا الزواج بقاء نسل ، وترويح نفس ، واذا هو ايضاً دافع لطلب المال الحرام ، وقصور عن القيام بحق الاهل ، واشتغال بالدنيا عن الله . فمن زادت في حقه الفوائد كان الزواج له افضل ، ومن زادت الآفات كانت العزوبة افضل.

واذا البحث في كسب المال مجال لعرض المباح والمحظور في التجارة والعقود ، في البيع والربا ، وفي الاجارة والشركة والقراض.

وقل مثل ذلك في كلامه عن الصحبة والعزلة ، عن السفر والسماع ، وعن الامر بالمعروف والنهي عن المنكر.

وان ما يدهشك في كلامه عن السماع هو جرأته في مخالفة ائمة المذاهب الفقهية . ان ابا حنيفة ، ومالكاً ، وابن حنبل ، والشافعي قد اتفقوا على تحريم السماع ، لان رخيم الاصوات يثير كامن الشهوات . وان الغزالي يحرم السماع على من يتخذه عادة ولهوًا ، انما يبيحه لمن يستلذ الصوت الحسن ، او يستعمله طريقاً الى الوجد . ومن الظاهر ان استعمال الصوفية للسماع هو ما حمل الغزالي على اباحته.

❖❖❖

يفرغ الغزالي من عرض عقيدة المسلم ، ومما يفرضه عليه دينه من عمل وواجب ، وكأنه حدد دين المؤمن العادي ، دين العامة ، ووضع الاساس الصحيح لمن يرجو حياة اسمى ، وكمالا اتم .

وان الغزالي لم يأتِ مبتكراً ، لان علماء الكلام والفقهاء قد اسهبوا قبله في هذه المواضيع ، وانه قد اخذ الكثير عن الاشعرية والشافعية . وان امتاز عن سابقيه ففي ما ادخله من عاطفة دينية ، وروح صوفية ، في ما عناه كتابه الاكبر في هذا الموضوع ، « احياء علوم الدين » . وان الغزالي قد بثّ حقاً حياة جديدة في عقيدة تجمدت تعابير ، وفي روحانية تكدست شرائع ومذاهب .

- ٣ -

العمل الصوفي

ونتهي الآن الى ما دعوناه العمل الصوفي ، الى ما عرضه الغزالي في الربعين الاخيرين من كتاب الاحياء ، وفي رسائل اخرى عديدة .

وان الكمال الصوفي شطران : تطهير للقلب من الرذائل ، وتحلية له بالفضائل ، او قل جهاد ضد اميال الجسد ، وشهوات الدنيا ، وكبوات الروح ، فجدّ وراء فضائل النفس ، وصفاء القلب ، وحب الله .

***

وان الغزالي يمهد لذلك بكتابين في عجائب القلب ، ورياضة النفس ، يحلل فيها نفسية الانسان ، وما يستطيعه من كمال ، ويعترضه من عقبات .

ان الانسان بقلبه . والقلب هو الروح ، او النفس ، او العقل ، اي تلك اللطيفة الروحانية ، المدركة للاشياء . وان القلب هو « العالم بالله ، وهو المتقرب الى الله ، وهو العامل لله ، وهو الساعي الى الله ، وهو المكاشف بما عند الله ولديه . »[1]

---

١) الاحياء : ٣ : ص ٢

وان القلب في الجسد كملك في مدينة ، يدبر شؤون الجسد ، ويخضع لارادته جنود . وان جنود القلب حواس واعضاء ، وانهم شهوة وغضب ، وخيال وفكر وذاكرة ، « وانما افتقر القلب الى هذه الجنود ، من حيث افتقاره الى المركب والزاد لسفره ، الذي لاجله خلق ، وهو السفر الى الله . »[1]

وللقلب عملان ، اكتساب علم ، وتحصيل كمال . اما العلم فينالـه بتعلم بشري ، وينالـه بالهام الهي . وان الالهام لا يحصل الا بتطهير القلب : « القلوب كالاواني ، فما دامت ممتلئة بالماء لا يدخلها الهواء . فالقلوب المشغولة بغير الله ، لا تدخلها المعرفة بجلال الله[2] . » واذاً طريق العلم والكمال الروحي واحد ، هي طهارة القلب وصفاؤه .

وان مبدأ الاعمال الخواطر ، ان دعت الى الخير كانت الهاماً صادراً عن ملاك ، وان دعت الى الشر كانت وسواساً صادراً عن الشيطان . وان القلب قابل ، على التساوي ، للالهام والوسواس ، متجاذب بين الاثنين ، « والتطارد بين جندي الملائكة والشياطين في معركة القلب دائم . . . واكثر القلوب قد فتحتها جنود الشياطين . »[3]

وان الشهوة والغضب ، ومـا يتشعب عنهما من حب الغنى ، وشهوة المأكل ، وطلب الزينة ، والتعصب للمذهب ، لابواب الشيطان الى القلب . وان على الانسان ان يجـاهد لكي يروض جسده وحواسه ، ويضبط شهوته وغضبه ، فيطهر قلبه ويصفو ويبلغ علماً وكمالاً . وان رياضة النفس لامر واجب ، وان اصلاح الاخلاق لشيء ممكن .

وانت ترى ، في هذا التحليل السريع ، ما اخذ الغزالي عن الفلاسفة

---

١) الاحياء : ٣ : ص ٥

٢) الاحياء : ٣ : ص ٧

٣) الاحياء : ٣ : ص ٢١

في تحليله قوى النفس ، وجنود القلب ، وما يوافق فيه الروحانية المسيحية من القول بالنعمة والتجربة ، وبالجهاد الروحي في سبيل الكمال ، وبان حياتنا الدنيا سفر الى الله وسبيل .

❖❖❖

ويتطرق الغزالي ، بعد ذلك ، الى البحث في عيوب النفس وهي : شهوة البطن ، وشهوة الجسد ، وآفات اللسان ، والغضب ، والحقد ، والحسد ، والبخل ، وحب الجاه ، والرياء ، والكبر والعجب ، والغرور .

وانه لبحث طويل حقًا ، يضيق عنه مثل هذا الدرس ، ان نفصل لك ما قاله الغزالي في عيوب النفس عيباً عيباً .

انه يهدي المريد اولًا الى معرفة عيوب نفسه ، ويفرض عليه الاسترشاد برأي شيخ بصير ، ويعدد له شروط الرياضة والجهاد .

ثم انه يتعرض للعيوب واحدًا واحدًا ، فيحدد له ماهيتها واسبابها ، ويبين كيف تروض النفس على معالجتها واستئصالها ، وما يجب ان تمارسه من تمارين ، وتقوم به من تأملات ، ويورد لك آيات من القرآن ، واحاديث منسوبة للنبي ، واقوالًا لمشاهير المتصوفة .

ولنعرض لك ، كمثال ، تحليله لشهوة البطن .

ان شهوة البطن ، في نظره ، اصل كل العيوب . بها اخرج آدم وحوا من الجنة ، ومنها تنبعث شهوة اللذة الجسدية . ويتبع هاتين الشهوتين شهوة المال والجاه ، وسيلة التمتع بهما . ويتشعب عن طلب المال والجاه آفات كثيرة ، كالكبر والرياء ، كالحسد والحقد ، ومنبع كل ذلك البطن .

وبعد ان يورد الغزالي احاديث كثيرة في فضيلة الجوع ، واقوالًا عن الانبياء والاولياء ، يعدد فوائده ، فاذا هي للبدن صحة ، وللعقل صفاء ، وعلى القناعة والصدق عون ، واذا بالجوع تكسر شهوات المعاصي ، ويسهل السهر والمواظبة على العبادة ، ويذكر الانسان بلاء الله وعذابه .

وينتهي الغزالي الى كيفية رياضة المريد على الجوع ، فيتكلم عن كمية الطعام ، ونوعه ، وعن اوقات تناوله . على المريد ان يقلل من كمية الطعام ، فلا يأخذ اكثر مما يحتاج اليه لقيام جسده ، وبقاء قواه ، وليكن ذلك على التدريج ، لان من اعتاد الاكل الكثير ، وانتقل دفعة الى القليل ، لم يحتمله مزاجه . وعليه ان يمتنع عن شهيّ الطعام ، ولذة اللحوم ، كي لا يسكن الى نعيم الدنيا ، ويسعى وراء المعاصي . وان اقل ما يُطلب منه الاقتصار في اليوم على اكلة واحدة ، واكثر ما يطلب منه ان يطوى ثلاثة ايام . وان بعض سالكي الطريقة يطوون ثلاثين يوماً ، واربعين ، وخمسين .

ويحذر الغزالي المريد من الرياء ، من الامتناع عن الاكل مع الجماعة للاكل في الخلوة ، كما يحذره من خطر العجب ، وحب الاشتهار بالتعفف وفضيلة الجوع . وانه يكون حينذاك قد خالف شهوة الاكل ، واطاع شهوة الجاه ، وهذا كمن هرب من عقرب ، وفزع الى حيّة .

نكتفي بهذا المثل ، وندعوك الى مطالعة ما كتبه الغزالي في باقي عيوب النفس ، فانك واجد فيه نفعاً كثيراً .

- ٤ -

رأيت الى الان ، ما اثبت الغزالي للمؤمن من عقائد ، وسنن من آداب الحياة ، ثم رأيت كيف دعاه الى كمال روحي اسمى ، الى طهارة القلب وصفائه ، برياضة النفس ، ومجاهدة الاهواء . وها هو يطفر به الى اقصى الكمال ، الى الفناء في حب الله ، والنعيم في نشوة لقياه .

وان الربع الاخير من كتاب الاحياء لعرض دقيق للمقامات الصوفية ، او قل لسبيل القلب في السير الى ربه .

وان هـذه المقامات تسعة ، وهي : التوبة ، والصبر ، والشكر ،

والخوف ، والرجاء ، والفقر ، والزهد ، والتوحيد والتوكل ، والمحبة .

وان الغزالي يضيف الى المحبة ثلاثة توابع – الشوق والانس والرضا –

ويفرض على سالك الطريقة اربعة فروض عامة هي :

اولاً : النية والصدق والاخلاص .

ثانياً : المراقبة والمحاسبة ، او ما ندعوه فحص الضمير .

ثالثاً : التفكر ، اي التأمل الروحي .

رابعاً : ذكر الموت ، زهداً بالدنيا ، وتأهباً للآخرة .

❖◆❖

وينتظم كل مقام من ثلاثة امور ، من علم ، وحال ، وفعل .

اما العلم فمن شأن العقل ، به يعرف ما هو المقام ، وما الداعي الى طلبه ، وكيف يمكن الوصول اليه .

حتى اذا تمّ هذا العلم ، انبعثت في النفس عاطفة ، وثار في القلب شعور ، اي مالت النفس الى ما رآه العقل من خير . وهذا هو الحال .

ومتى حصل للانسان العلم والحال ، نتج عنهما ارادة وقصد ، فكان الفعل .

اذاً العلم يولد الحال ، والحال يدفع الى العمل ، « والاول موجب للثاني ، والثاني موجب للثالث ، ايجاباً اقتضاه اطراد سنة الله . »[1]

❖◆❖

خذ ، مثلاً ، التوبة . فالعقل يرى عظم ضرر الذنوب ، وكونها حجاباً يفصله عن الله محبوبه . والقلب يتألم لفوات المحبوب ، ويندم على ما صدر منه . والارادة تعزم على ترك كل ذنب في الحال والاستقبال . فما رآه العقل علم ، والندم حال ، وقصد ترك الذنوب فعل .

وان الغزالي يرى امكان التسلسل المعاكس ، اي ان يثير الفعل

---

١) الاحياء : ٤ : ص ٣

الشعور ، وان يقوي الشعور ثقة العقل . قال الغزالي : « ان المواظبة على الطاعات لها تأثير في تأكيد طمأنينة النفس الى الاعتقاد التقليدي ، ورسوخه في النفس . وهذا امر لا يعرفه الا من سبر احوال نفسه ، وراقبها في وقت المواظبة على الطاعة ، وفي وقت الفترة ، ولاحظ تفاوت الحال في باطنه . . . فان من يعتقد الرحمة في قلبه على يتيم ، فان اقدم على مسح رأسه ، وتفقد امره ، صادف في قلبه ، عند ممارسة العمل ، بموجب الرحمة ، زيادة تأكيد في الرحمة . ومن يتواضع بقلبه لغيره ، فاذا عمل بموجبه ، ساجدًا له ، او مقبلًا يده ، ازداد التعظيم والتواضع في قلبه . »[1]

واستنادًا الى هذا المبدأ ، يرى الغزالي ان ما يقوم به الصوفيون من حركات خارجية مفيد لاثارة الوجد ، فالوصول الى مشاهدة الله . قال الغزالي ، اثناء كلامه عن آداب السامع : « ان رقص او تباكى ، فهو مباح ، اذا لم يقصد به المراآة ، لان التباكي استجلاب للحزن ، والرقص سبب في تحريك السرور[2] . » وقل مثل ذلك في الذكر والسماع ، فان مراجعة اسم الله او احدى صفاته ، وان الغناء بشعر صوفي او سماعه ، لافعال جسدية تمهد لحالة الوجد ، وتساعد عليه .

واذًا الشعور مسبَّب بين سببين ، هما العلم والعمل . واذًا حب الله ، هدف الصوفي الاقصى ، هو رهن ايمان وتقى ، رهن تأمل روحي ورياضة نفس ، رهن تفكر في صفاء القلب ، وعمل على ايجاد هذا الصفاء . وقد الحّ الغزالي كثيرًا على الجمع بين العلم والعمل .

❖❖❖

ونردد عليك الان ما قلناه ، حين تكلمنا عن عيوب النفس ، من

---

١) الاقتصاد في الاعتقاد : ص ١٠٢ – وان هذه النظرية تتفق ونظرية ولم جمس ، القائل بان الحركات الجسدية هي سبب الشعور النفسي .

٢) المختارات : ص ٥٩

ان هذا الدرس لأضيق من ان نبحث فيه المقامات الصوفية مقاماً مقاماً، وانّا نكتفي بما اثبتناه لك من مقاطع في المختارات، وفيها ما يطلعك على ما عند الغزالي من غنى فكري، ومن تحليل نفسي دقيق.

على انه من الضروري ان نرى غاية ما يصل اليه الصوفي في صعوده نحو الله، ما يحصل عليه من علم، وينالـه من قرب ونعيم.

❖❖❖

جاء في المنقذ: «ماذا يقول القائلون في طريقة، طهارتها، وهي اول شروطها، تطهير القلب بالكلية عما سوى الله تعالى، ومفتاحهـا... استغراق القلب بالكلية بذكر الله، وآخرها الفناء بالكلية في الله؟... وعلى الجملة ينتهي الامر الى قرب، يكاد يتخيل منه طائفة الحلول، وطائفة الاتحاد، وطائفة الوصول، وكل ذلك خطأ[1].»

وقال الغزالي في رياضة المريد: «منتهى الرياضة ان يجد قلبه مع الله على الدوام، ولا يمكن ذلك الا بان يخلو عن غيره. ولا يخلو عن غيره الا بطول المجاهدة. فاذا حصل قلبه مع الله تعالى، انكشف له جلال الحضرة الربوبية، وتجلّى له الحق، وظهر له من لطائف الله تعالى ما لا يجوز ان يوصف، بل لا يحيط به الوصف اصلاً[2].»

فالصوفي اذاً، حين يطهر قلبه من كل عيب، ويعريه من حب الدنيا، يخلو الى الله، ويفنى فيه، ويسبر كنوز اعماقه.

وان الخلو عن كل شيء، وحضور الله في القلب، هو هذا القرب الذي ينشده الصوفي، وهذا الوصال الذي يتوق اليه، وهذا التنعم بالله محبوبه.

على ان هذا القرب ليس الحلول، الذي ذهب اليه بعض غلاة المتصوفة وان الشطحات الصوفية — من مثل انا الحق، او سبحاني ما اعظم

---

١) المنقذ: ص ١٣٣ – ١٣٤

٢) الاحياء: ٣: ٥٨

شأني – قد يعبرها ما يحصل للصوفي من سكر ، يقع معه سلطان العقل، انما لا يجوز النطق بها ، بعد الصحو وعودة الهدى .

وان الفناء في الله يعني شيئين : اولاً ان الصوفي قد ذهل عن كل شيء سوى الله ، وخلا قلبه من كل شيء غير الله ، وذلك في ذروة الحب . وثانياً ان الصوفي يرى صدور كل موجود عن الله ، وقيامه به ، وان الوجود اللامعلول واحد : ليس في الوجود غير الله ، لان الغير ما له قوام بنفسه ، ومثل هذا الغير غير موجود . ومن لم يفهم هذا المعنى ، ينكر على الصوفية كلامهم ، ويقول : « كيف فني ، وطول ظله اربعة اذرع ، ولعله يأكل في كل يوم ارطالاً من الخبز ؟ » .

وفي حالة الفناء هذه ، يتجلى الحق للصوفي ، فاذا هو لقلبه غبطة لا تساويها غبطة ، واذا هو الهام لا يضارعه علم .

وان القلب كمرآة ، اذا صفا من كل عيب ، واتجه نحو الله ، انعكست فيه صور اللوح المحفوظ – وهي صور كل موجود – ورأى كل شيء .

وانه كحوض محفور . انت تستطيع ان تملأ الحوض بماء تسوقه اليه من الخارج، او بماء اصفى وادوم تفجره بالحفر في اسفل الحوض . وهكذا تساق العلوم الى القلب بواسطة انهار الحواس ، او تتفجر في اعماقه الهاماً، بواسطة الخلوة والعزلة وتطهير الداخل . والالهام يغني عن كل علم شرعي او عقلي، ويولي معارف اخرى ايضاً .

فقلب الصوفي اذاً هو ذاك الاناء المصطفى ، الذي نقاه الله من الارجاس ، وزانه بالاصباغ والالوان ، ليسكب فيه خمرة حبه ، ويعكس فيه لآلئ نوره . والصوفي هو ذاك الانسان المختار ، الذي جاز حدود النوع ، ونهل من منبع الحياة ، فاذا هو يحس ما لا يحس الناس ، ويرى ما لا يرون ، واذا هو دفق حب تغمر مجاريه النفوس ، وسبيل الى الحق يهتدي الناس بهديه . وان الكمال الصوفي لذروة ما وصل اليه الانسان ، وخير ما يلجأ اليه الناس لينجوا من عبودية المادة ، واخطار الاثرة والجشع .

حكم عام

نقف بك عند هذه الذرى من فكرة الغزالي ، وقد شعبنا فيها ، وتوغلنا في التفصيل . واناً نعود عليها الآن نلخصها في لمحة جامعة ، وحكم سريع :

١ — في حياة الغزالي حدث اكبر ، هو اهتداؤه الى التصوف . وقد اعده لذلك تربية صوفية ، واكبر من شأن المتصوفين في نظره عناية نظام الملك بهم ، ودفعه الى الخطوة الحاسمة مرض الم ، واضطرابات سياسية شوشت عليه الحياة . لقد رأى الغزالي في التصوف دعوة كمال ، وسبيل طمأنينة .

٢ — على انه رأى في التصوف ايضاً خروجاً من مأزق عقلي عسير . لقد التبس عليه الحق بين تعدد الاديان ، وتناقض المذاهب ، ووهى في نظره العقل حين تساءل العقل عن قدرته ، فاذا التصوف ايمان يوحي يزدري كل شكوك العقل ، واستسلام بين يدي خالق لا يؤثر على الحب حقاً . وان الغزالي نفسه يصف لنا تصوفه حلاً لمشكلة عقلية ، قبل ان يصفه سبيلاً لكمال الروح .

٣ — وان هذا الاهتداء الى التصوف قد بدّل القيم ، وحوّر مجرى التفكير .

كان الغزالي ، قبل تصوفه ، يعنى بالفقه ومذاهبه ، وبعلم الكلام وعقائده . والفقه قانون الشرع ، يحدد ما يحظر من الاعمال الخارجية وما يباح ، والكلام فلسفة الشرع ، يصوغ في لغة العقل ما جاء في لغة القلوب . وان الفقه والكلام ضروريان للفهم والتعليم . على ان الدين لا يعبأ بالعمل الخارجي قدر ما يعبأ بعاطفة تحييه وتوجيه ، ولا يقوم بعقيدة

عقلية قدر ما يقوم باخضاع الحياة لتلك العقيدة ، وبنزعة القلب الى حب الله ، مصدر كل حق وحياة .

لهذا انصرف الغزالي المتصوف عن الفقه والكلام الى ما هو اعمق في حياة القلب ، واوضح في نظر العقل ، الى ما سماه علمي المعاملة والمكاشفة . وما علم المعاملة سوى تخطّي الفقه والعمل الخارجي ، للولوج الى ثنايا القلب ، مسرح الاهواء والجهاد . وما علم المكاشفة سوى تخطّي التعبير العقلي الجاف ، وتجاوز القوى العقلية المحدودة ، للارتشاف من منهل النور الاسنى ، ومصدر الحق الاكمل . او قل ما علما المعاملة والمكاشفة سوى التصوف نفسه تقيّ والهاماً .

٤ – اما قيمة ما كتبه الغزالي ، في مختلف مناحي الفكر والروح ، فتتفاوت عمقاً وصواباً .

يمتاز الغزالي الفقيه بالوضوح والاستيعاب ، ويمتاز باعتناقه المذهب الشافعي . وما تزال تآليفه من امهات الكتب في هذا الفن .

اما الغزالي المتكلم فسار على اثر الاشعري ، يفصّل ويوضح ، فكان بين الاشعريين علماً ، ولعقيدة اهل السنة اماماً وحجة . وان من ابرز مبادئ الاشعرية الحذر من العقل وقدرته ، والتقيد بنص الشرع وظاهره ، والحد من قدرة العبد اشفاقاً من تقييد القدرة الالهية . وقد رأينا كيف غالى الغزالي ، اذ حصر الافعال على الله وحده ، فانكر حرية الانسان ، واساء فهم العدل الالهي .

واشعرية الغزالي هذه دفعته الى مهاجمة الباطنية ، يؤيده رضى السلطان وحضه . وفي رد الغزالي على الباطنية ، تراه يعمد الى المنطق لتمييز الحق عن الباطل ، ويبالغ في قدرة العقل على الهدي الى الحق ، وكأنه يسهى عن رأيه في العقل ، شأنه في ذلك شأن كل مجادل ، يهمه افحام الخصم ، اكثر مما يهمه اقرار الحقيقة .

وان الغزالي قد حمل على الفلاسفة فكفرهم ، وضللهم ، وحاول اظهار عجز العقل عن ادراك كل حقائق الوحي . والحق ان العقل محدود القوى ، وان الله قد يوحي للناس ما لا يناله عقل او يفهمه . والحق ايضاً ان الفلاسفة قد توغلوا في التأويل ، فشرحوا بعض عقائد الاسلام على غير وجهها ، رامين الى توفيقها وفلسفتهم . على ان الغزالي قد غالى في مهاجمتهم ، فكفرهم حين لا يستحقون التكفير ، وحاول اكتشاف تناقضات ، وابطال براهين ، اكثر مما حاول فصل الحق عن الباطل ، وصون العقل من الضلال . لقد تأثر الغزالي بنزعة فقهاء عصره ومتصوفيه ، فهاجم الفلسفة جملة ، وما درى انه يهاجم العقل جملة ، فيوقف كل استنباط فكري ، وكل تقدم ورقي . لقد كان الاحرى به ان يخلص للحق ، فلسفة او وحياً ، وان يستوي ميزاناً عدلاً بين متكلم وفيلسوف . ولكنها تجربة المؤمن يحط من شأن العقل خوفاً على ايمانه ، ولكنها بدعة العقل الذكي يتعمد الحد من حق اهل الذكاء !

اما الغزالي الصوفي فقد اقتبس كثيراً من متصوفين سبقوه ، سيما من ابي طالب المكي .

وان الغزالي لكثير الاستشهاد بآيات الانجيل ، كثير الاقتباس من الروحانية المسيحية ، يوم لم تكن احداث السياسة تدفعه الى هذي المناهل . انه لمن الخير ان تكون مثل هذه الصلات الحية بين الاسلام والمسيحية ، ان يكون شخص يرى فيه الاسلام حجته ، وترى فيه الروحانية المسيحية صدى من اصفى اصدائها . وانها لغبطة وأمل ان يسمو بعض هواة الروح ، فيحطموا من قيود البيئة والتاريخ ، ويهدموا من حواجز الهوى ، ويخطوا بالنوع الخطوات المثلى ، يخطوا به نحو وحدة الحق والمثل .

وان للغزالي في التصوف اثرين كبيرين . الاثر الاول هو تطهير التصوف من عناصر الوهم والاباحية : لقد رفض الغزالي الحلول ، وشجب

الشطح ، ودعا الى التقيد بالشريعة ، واشاد بقيمة العلم . لقد كانت ثقافة الغزالي الشاب مزيجاً من علم الكلام والتصوف ، وقد تقابل هذان العنصران ، مع الايام ، وتداخلا ، وتلاءما ، فحالت عقائد الكلام دون تطرف التصوف ، وبثّ التصوف في العقيدة روحاً وحياة . اما الاثر الثاني فهو التعمق في درس خفايا النفس ، وهمسات الروح ، هو تلك التحاليل النفسية الدقيقة لطائفة من العيوب والفضائل ، فاق بها الغزالي من حاول للقلب فهماً ، ولاهوائه دواء .

اما ما ادّعاه الغزالي من الهام ، أبى به بوحاً ، محتجاً بعجز اكثر الناس عن ادراكه ، فنظرية خطرة تعدد الاعتقادات في الدين الواحد ، وتجعل من المؤمنين خاصة وعامة . ان ابن رشد سيعتنق هذه النظرية ، مع بعض تحوير ، وان العصر الاوسط سيستوحيها في نظرية « الحقيقة المزدوجة » .

وقد تتساءل ، بعد ذاك ، هل حظي الغزالي بالهام ، وخبر الحالة الصوفية . والحق انا لا نعرف للغزالي ما نعرفه لكبار المتصوفين من صبوات ، ومن وله ، وان ابن العربي ينسب له الاعتراف بان « قوة فقهية » سابقة منعته من اللحاق بالقوم . ولعله قد رأى ارض الميعاد دون ان تطأها قدماه . على كلٍ ، يكفيه قدرا انه سلك السبيل ، وتاق الى الغاية ، يكفيه انه قد جاز في سبيل الكمال مراحل ، وبلغ في طلب التقى آمادا ، وانه ما استسلم يوماً للوهم ، او فقد عقله اثر انه .

٥ — اما اذا تركت ما خلّفه الغزالي من تآليف ، وعمدت الى ان تتبين بعض نزعات ناتئة في نفسيته وتفكيره ، فاليك بعض ما ترى :

لقد اقلق الغزالي تباين الاديان والمذاهب ، وظل هذا التباين مشكلة مستعصية في عقله ، حتى اخر العمر ، — كما يظهر من نص المنقذ[1] — على الرغم من ركونه عملياً الى مذهب التصوف .

١) فلاسفة العرب : ٤ : ص ٤١

وان هذا القلق نفسه قد حمل الغزالي على النفور من التقليد ، من الرضوخ لرأي سابق ، او التقيد بتعليم مذهب ، حذرًا من الوقوع في الضلال . وقد هدف الغزالي — يتزع به ذكاؤه واعتداده بالنفس — الى ايجاد مذهب خاص ، يسير عليه دون باقي المذاهب . وان يكن وفق الغزالي الى جني ما حسبه صالحًا في مختلف المذاهب ، وسبكه في فكرة طريفة خاصة ، فانه قد ظل في الخطوط الاساسية مقلدًا ، يؤمن بالاسلام ايمان اجداده ، ويعلم في الفقه ما علم الشافعي ، وفي الكلام ما علمه الاشعري ، وفي التصوف ما اخذه عن سابقيه . وهـذا يثبت لك ما للجماعة على الفرد من تأثير ، وما للبيئة على ابنائها من سلطان .

ولعله ذاك النزاع بين سلطان البيئة والتقليد وبين نزعة الغزالي الى التحرر العقلي هو ما حدا به الى ان يضمر في السريرة غير ما يعلم في الناس . لقد اخفى ريبه في ايمانه ، يوم كان يدافع عن هذا الايمان في بغداد ، وقد ضنّ على العامة بما رآه في مكاشفاته ، او ادّعاه . على ان سلطان التقليد كان اقوى ، فلقد عاد اليه ايمانه على اسلم ما يكون ، وما نظنه ادّعى في مكاشفاته سوى ما كان يدّعي رؤيته طائفة المتصوفين .

وظاهرة اخرى في فكرة الغزالي هي حرصه على قرن العلم بالعمل . لقد كان الفلاسفة يجنحون الى الاكتفاء بالفلسفة ، والفقهاء الى الاقتصار على الشرع ، والصوفية الى الاعتداد بالتقى ، اما الغزالي فحاول ان يستمد من الفلسفة طرقها في الاقنـاع ، ومن الوحي نوره المكين ، ومن الصوفيين سلوكهم الصالح . وما هذا بغريب ، فان اهتداء الغزالي نفسه هو ذاك الجمع بين علم حصّل منه جمًّا ، وعمل ليس بدونه نجاة . العلم وسيلة ضرورية ، والعمل غاية قصوى ، واحدهما بدون الاخر باطل او مستحيل . وقد رأينا ما بين الاثنين من تفاعل ، ما للعلم من اثر في الحمل على العمل ، وما للعمل من اثر في تقوية العقيدة .

٦ — ولعل طرافة الغزالي الكبرى لفي هذا الجمع بين العلم والعمل ، والولوج بهما معاً الى ثنايا قلبه.

انه لمهم ان ندعو الناس الى الخير ، وان نهديهم الطريق ، انما اهم من ذلك ان ندعو انفسنا قبل ان ندعو الاخرين ، وان نهتدي نحن قبل ملامة الضالين . وان الغزالي قد ولج الى قلبه ، قبل الولوج الى قلوب الناس ، فتتبع مسالكه المتشعبة ، يرى ما يعتريه من ضعف ، ويتبين ما يصبو اليه من كمال . لقد تساءل السؤال الاكبر عن غاية الحياة ، وقيمة ما يعمل ، فكانت العاصفة الروحية الفاصلة ، وكان ذاك الانقلاب العجيب.

وان اثر الغزالي في ابناء عصره ، وفي ابناء الاجيال الآتية ، فلأنه جمع في حياته بين العلم والعمل ، فلم يكن عالماً زنديقاً ، او تقياً غافلاً. لقد دخل الى هيكل نفسه دخول الفنان على تمثاله ، يقطع منه وينزع ، يصقل ويجلو ، الى ان يزين التمثال بكل خطوط الجمال.

قال فيخت : « فلسفتنا انما هي تاريخ قلبنا . » وان فلسفة الغزالي كانت تاريخ قلبه ، وتاريخ قلب قلق غني !

مختارات

بين العقل والنقل

الحمد لله ، الذي اجتبى من صفوة عبادة عصابةَ الحق واهل السنة ، . . . وعمر افئدتهم بانوار اليقين ، حتى اهتدوا بها الى اسرار ما انزله على لسان نبيّه ، . . . واطّلعوا على طريق التلفيق[1] بين مقتضيات الشرائع وموجبات العقول ، وتحقّقوا ان لا معاندة بين الشرع المنقول والحق المعقول ، وعرفوا ان من ظنّ من الحشوية وجوب الجمود على التقليد واتباع الظواهر ، ما اتوا به الا من ضعف العقول وقلة البصائر ، وان من تغلغل من الفلاسفة وغلاة المعتزلة في تصرف العقل حتى صادموا به قواطع الشرع ، ما اتوا بـه الا من خبث الضمائر . فميل اولئك الى التفريط ، وميل هؤلاء الى الافراط ، وكلاهما بعيد عن الحزم والاحتياط ، بل الواجب المحتوم في قواعد الاعتقاد ملازمة الاقتصاد ، والاعتماد على الصراط المستقيم ، فكلا طرفي قصد الامور ذميم .

(الاقتصاد في الاعتقاد : ص ٣)

الناس والحق

ان الناس اربع فرق :

الفرقة الاولى : آمنت بالله ، وصدقت رسوله ، واعتقدت الحق واضمرته ، واشتغلت اما بعبادة واما بصناعة . فهؤلاء ينبغي ان يتركوا وما هم عليه ، ولا تحرّك عقائدهم . . .

---

١) لفّق الشقّتين : ضمّ احداهما الى الاخرى فخاطها . ولعل الكلمة في الاصل « التوفيق ».

الفرقة الثانية : طائفة مالت عن اعتقاد الحق ، كالكفرة والمبتدعة . فالجافي الغليظ منهم ، الضعيف العقل ، الجامد على التقليد ، الممتري على الباطل من مبتدأ النشوء الى كبر السن ، لا ينفع معه الا السوط والسيف ، فاكثر الكفرة اسلموا تحت ظلال السيوف ، اذ يفعل الله بالسيف والسنان ما لا يفعل بالبرهان واللسان[1] . . .

الفرقة الثالثة : طائفة اعتقدوا الحق تقليداً وسماعاً ، ولكن خصّوا في الفطرة بذكاء وفطنة ، فتنبهوا من انفسهم لاشكالات تشككهم في عقائدهم ، وزلزلت عليهم طمأنينتهم . . . فهؤلاء يجب التلطف بهم في معالجتهم ، باعادة طمأنينتهم ، واماطة شكوكهم ، بما امكن من الكلام المقنع ، المقبول عندهم . . .

الفرقة الرابعة : طائفة من اهل الضلال ، يُتفرس فيهم مخائل الذكاء والفطنة ، ويُتوقع منهم قبول الحق بما اعتراهم في عقائدهم من الريبة ، او بما يلين قلوبهم لقبول التشكيك بالجبلة والفطرة . فهؤلاء يجب التلطف بهم في استمالتهم الى الحق ، وارشادهم الى الاعتقاد الصحيح ، لا في معرض المحاجّة والتعصب ، فان ذلك يزيد في دواعي الضلال ، ويهيج بواعث التمادي والاصرار . . . والمجادلة والمعاندة داء محض لا دواء له ، فليتحرز المتدين منه جهده ، وليترك الحقد والضغينة ، وينظر الى كافة خلق الله بعين الرحمة ، وليستعن بالرفق واللطف في ارشاد من ضلّ . . .

(الاقتصاد : ص ٦-٨)

• • •

---

١) هذا رأي من الغزالي غريب ، فان عقلاً لا يفعل فيه البرهان لغلاظته ، كيف يفعل فيه السيف ، فيولّد اقناعاً ، ويوجد ايماناً ؟ ان السيف قد يُنطق اللسان بما لا يؤمن به القلب ، وما هذا من الدين في شيء ، ان هذا الا كذب ورياء !

آداب المتعلم والمعلم

اما المتعلم فآدابه ووظائفه الظاهرة كثيرة ، ولكن تنظم تفاريقها عشر جمل :

الوظيفة الاولى : تقديم طهارة القلب عن رذائل الاخلاق ، ومذموم الاوصاف ، اذ العلم عبادة القلب ، وصلاة السر ، وقربة الباطن الى الله تعالى . . .

الوظيفة الثانية : ان يقلّل علائقه من الاشتغال بالدنيا ، ويبعد عن الاهل والوطن ، فان العلائق شاغلة وصارفة ، وما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه . ومهما توزعت الفكرة ، قصرت عن درك الحقائق . ولذلك قيل : العلم لا يعطيك بعضه ، حتى تعطيه كلك . . .

الوظيفة الثالثة : ان لا يتكبر على العلم ، ولا يتأمر على المعلم ، بل يلقي اليه زمام امره بالكلية في كل تفصيل ، ويذعن لنصيحته اذعان المريض الجاهل للطبيب المشفق الحاذق . وينبغي ان يتواضع لمعلمه ، ويطلب الثواب والشرف بخدمته . . .

الوظيفة الرابعة : ان يحترز الخائض في العلم ، في مبدأ الامر ، عن الاصغاء الى اختلاف الناس ، سواء كان ما خاض فيه من علوم الدنيا او من علوم الآخرة . فان ذلك يدهش عقله ، ويحير ذهنه ، ويفتر رأيه ، ويونسه عن الادراك والاطلاع . بل ينبغي ان يتقن اولاً الطريقة الحميدة الواحدة ، المرضية عند استاذه ، ثم بعد ذلك يصغي الى المذاهب والشبه . وان لم يكن استاذه مستقلاً باختيار رأي واحد ، وانما عادته نقل المذاهب وما قيل فيها ، فليحذر منه ، فان اضلاله اكثر من ارشاده ، فلا يصلح الاعمى لقود العميان . . .

الوظيفة الخامسة : ان لا يدع طالب العلم فناً من العلوم المحمودة ،

ولا نوعاً من انواعه ، الا وينظر فيه نظراً يطلع به على مقصده وغايته. ثم ان ساعده العمر ، طلب التبحر فيه ، والا اشتغل بالاهم منه ، واستوفاه ، وتطرف من البقية ، فان العلوم متعاونة ، وبعضها مرتبط ببعض...

الوظيفة السادسة : ان لا يخوض في فن من فنون العلم دفعة ، بل يراعي الترتيب ، ويبتدئ بالاهم . فان العمر ، اذا كان لا يتسع لجميع العلوم غالباً ، فالحزم ان يأخذ من كل شيء احسنه ، ويكتفي منه بشمه ، ويصرف جام قوته في الميسور من علمه الى استكمال العلم ، الذي هو اشرف العلوم ، وهو علم الآخرة ، اعني قسمي المعاملة والمكاشفة . فغاية المعاملة المكاشفة ، وغاية المكاشفة معرفة الله تعالى. ولست اعني به الاعتقاد الذي يتلقفه العامي وراثة او تلقفاً ، ولا طريق تحرير الكلام والمجادلة في تحصين الكلام عن مراوغات الخصوم ، كما هي غاية المتكلم . بل ذلك نوع يقين ، هو ثمرة نور ، يقذفه الله تعالى في قلب عبد ، طهر بالمجاهدة باطنه عن الخبائث ... فكن حريصاً على معرفة ذلك السر الخارج عن بضاعة الفقهاء والمتكلمين ، ولا يرشدك اليه الا حرصك في الطلب . وعلى الجملة ، فاشرف العلوم وغايتها معرفة الله عز وجل ، وهو بحر لا يدرك منتهى غوره ، واقصى درجات البشر فيه رتبة الانبياء ، ثم الاولياء ثم الذين يلونهم ...

الوظيفة السابعة : ان لا يخوض في فن ، حتى يستوفي الفن الذي قبله.

الوظيفة الثامنة : ان يعرف السبب ، الذي به يدرك اشرف العلوم. وان ذلك يراد به شيئان ، احدهما شرف الثمرة ، والثاني وثاقة الدليل وقوته. وذلك كعلم الدين وعلم الطب ، فان ثمرة احدهما الحياة الابدية ، وثمرة الآخر الحياة الفانية ، فيكون علم الدين اشرف. ومثل علم الحساب وعلم الطب ، فان علم الحساب اشرف لوثاقة ادلته وقوتها . وان نسب الحساب الى الطب ، كان الطب اشرف باعتبار ثمرته ، والحساب اشرف

باعتبار ادلته ، وملاحظة الثمرة اولى . . .

الوظيفة التاسعة : ان يكون قصد المتعلم ، في الحال ، تحلية باطنه وتجميله بالفضيلة ، وفي المآل القرب من الله . . .

الوظيفة العاشرة : ان يعلم نسبة العلوم الى المقصد ، كيما يؤثر الوفيع القريب على البعيد ، والمهم على غيره . . .

وظائف المرشد المعلم : . . .

الوظيفة الاولى : الشفقة على المتعلمين ، وان يجريهم مجرى بنيه . . . وانما المعلم هو المفيد للحياة الاخروية الدائمة ، اعني معلم علوم الاخرة ، او علوم الدنيا على قصد الآخرة ، لا على قصد الدنيا . فاما التعليم على قصد الدنيا فهو هلاك واهلاك ، نعوذ بالله منه . وكما ان حق ابناء الرجل الواحد ان يتحابوا ويتعاونوا على المقاصد كلها ، فكذلك حق تلامذة الرجل الواحد التحاب والتوادد . . .

الوظيفة الثانية : ان يقتدي بصاحب الشرع ، صلوات الله عليه وسلامه ، فلا يطلب على افادة العلم اجرًا ، ولا يقصد به جزاء ولا شكرا ، بل يعلم لوجه الله تعالى ، وطلباً للتقرب اليه . ولا يرى لنفسه منة عليهم ، وان كانت المنة لازمة عليهم . . .

الوظيفة الثالثة : ان لا يدع من نصح المتعلم شيئاً . . .

الوظيفة الرابعة ، وهي من دقائق صناعة التعليم : ان يزجر المتعلم عن سوء الاخلاق ، بطريق التعريض ما امكن ، ولا بصرح ، وبطريق الرحمة لا بطريق التوبيخ . فان التصريح يهتك حجاب الهيبة ، ويورث الجرأة على الهجوم بالخلاف ، ويهيج الحرص على الإصرار . . .

الوظيفة الخامسة : ان المتكفل ببعض العلوم ينبغي ان لا يقبح ، في نفس المتعلم ، العلوم التي وراءه ، كمعلم اللغة اذ عادته تقبيح علم الفقه . . .

الوظيفة السادسة : ان يقتصر بالمتعلم على قدر فهمه ، فلا يلقي اليه ما لا يبلغه عقله ، فينفره . . .

الوظيفة السابعة : ان المتعلم القاصر ينبغي ان يلقى اليه الجلي اللائق به ، ولا يذكر له ان وراء هذا تدقيقاً ، وهو يدخره عنه . فان ذلك يفتر رغبته في الجلي ، ويشوش عليه قلبه ، ويوهم اليه البخل عنه ، اذ يظن كل احد انه اهل لكل علم دقيق . فما من احد الا وهو راض عن الله سبحانه ، في كمال عقله ، واشدهم حماقة ، واضعفهم عقلاً ، هو افرحهم بكمال عقله . . .

الوظيفة الثامنة : ان يكون المعلم عاملاً بعلمه ، فلا يكذب قوله فعله . . .

(الاحياء : ١ : ص ٣٦-٤٤)

الالهام والتعلم

اعلم ان العلوم ، التي ليست ضرورية ، وانما تحصل في القلب في بعض الاحوال ، تختلف الحال في حصولها . فتارة تهجم على القلب ، كأنه القي فيه من حيث لا يدري ، وتارة تكتسب بطريق الاستدلال والتعلم . فالذي يحصل ، لا بطريق الاكتساب وحيلة الدليل ، يسمى الهاماً . والذي يحصل بالاستدلال يسمى اعتباراً واستبصاراً . . .

فاذا عرفت هذا ، فاعلم ان ميل اهل التصوف الى العلوم الالهامية ، دون التعليمية . فلذلك لم يحرصوا على دراسة العلم ، وتحصيل ما صنفه المصنفون ، والبحث عن الاقاويل والادلة المذكورة ، بل قالوا : الطريق تقديم المجاهدة ، ومحو الصفات المذمومة ، وقطع العلائق كلها ، والاقبال بكنه الهمة على الله تعالى . ومهما حصل ذلك ، كان الله هو المتولي لقلب عبده ، والمتكفل له بتنويره بانوار العلم . واذا تولى الله امر القلب ،

فاضت عليه الرحمة ، واشرق النور في القلب ، وانشرح الصدر ، وانكشف له سر الملكوت ، وانقشع عن وجه القلب حجاب الغرة بلطف الرحمة ، وتلألأت فيه حقائق الأمور الالهية . . .

وزعموا ان الطريق في ذلك اولاً بانقطاع علائق الدنيا بالكلية ، وتفريغ القلب منها ، وبقطع الهمة عن الاهل والمال والولد والوطن ، وعن العلم والولاية والجاه ، بل يصير قلبه الى حالة يستوي فيها وجود كل شيء وعدمه . ثم يخلو بنفسه في زاوية ، مع الاقتصار على الفرائض والرواتب ، ويجلس فارغ القلب ، مجموع الهم ، ولا يفرق فكره بقراءة قرآن ، ولا بالتأمل في تفسير ، ولا بكتب حديث ولا غيره . بل يجتهد ان لا يخطر بباله شيء سوى الله تعالى . فلا يزال ، بعد جلوسه في الخلوة ، قائلاً بلسانه : الله ، الله ، على الدوام ، مع حضور القلب ، حتى ينتهي الى حالة يترك تحريك اللسان ، ويرى كأن الكلمة جارية على لسانه . ثم يصبر عليه الى ان يمحى اثره عن اللسان ، ويصادف قلبه مواظباً على الذكر . ثم يواظب عليه الى ان يمحى عن القلب صورة اللفظ ، وحروفه ، وهيئة الكلمة ، ويبقى معنى الكلمة مجرداً في قلبه ، حاضراً فيه ، كانه لازم له لا يفارقه . . .

وعند ذلك ، اذا صدقت ارادته ، وصفت همته ، وحسنت مواظبته ، فلم تجاذبه شهواته ، ولم يشغله حديث النفس بعلائق الدنيا ، تلمع لوامع الحق في قلبه . . .

انه لو فرضنا حوضاً محفوراً في الارض ، احتمل ان يساق اليه الماء من فوقه ، بانهار تفتح فيه . ويحتمل ان يحفر اسفل الحوض ، ويرفع منه التراب ، الى ان يقرب من مستقر الماء الصافي ، فينفجر الماء من اسفل الحوض . ويكون ذلك الماء اصفى وادوم ، وقد يكون اغزر واكثر . فذلك القلب مثل الحوض ، والعلم مثل الماء ، وتكون الحواس الخمس

مثل الانهار. وقد يمكن ان تساق العلوم الى القلب بواسطة انهار الحواس والاعتبار بالمشاهدات ، حتى يمتلئ علماً . ويمكن ان تسدّ هذه الانهار ، بالخلوة والعزلة وغض البصر ، ويعمد الى عمق القلب بتطهيره ، ورفع طبقات الحجب عنه ، حتى تتفجر ينابيع العلم من داخله.

فان قلت: كيف يتفجر العلم من ذات القلب ، وهو خالٍ عنه ؟ فاعلم ان هذا من عجائب اسرار القلب ، ولا يسمح بذكره في علم المعاملة[1] بل القدر الذي يمكن ذكره ان حقائق الاشياء مسطورة في اللوح المحفوظ ، بل في قلوب الملائكة المقربين . فكما ان المهندس يصور ابنيّة الدار في بياض ، ثم يخرجها الى الوجود على وفق تلك النسخة ، فكذلك فاطر السماوات والارض كتب نسخة العالم من اوله الى اخره في اللوح المحفوظ ، ثم اخرجه الى الوجود على وفق تلك النسخة . . . فكان للعالم اربع درجات في الوجود : وجود في اللوح المحفوظ وهو سابق على وجوده الجسماني ، ويتبعه وجوده الحقيقي ، ويتبع وجودَه الحقيقي وجوده الخيالي اعني وجود صورته في الخيال ، ويتبع وجوده الخيالي وجودُه العقلي اعني وجود صورته في القلب . . .

فنقول: القلب ، قد يتصور ان يحصل فيه حقيقة العالم وصورته ، تارة من الحواس ، وتارة من اللوح المحفوظ ، كما ان العين يتصور ان يحصل فيها صورة الشمس ، تارة من النظر اليها ، وتارة من النظر الى الماء الذي يقابل الشمس ويحكي صورتها . فهما ارتفع الحجاب بينه وبين اللوح المحفوظ ، رأى الاشياء فيه ، وتفجر اليه العلم منه ، فاستغنى عن الاقتباس

---

١) قال الغزالي في مقدمة كتاب الاحياء : « ان العلم ، الذي يتوجه به الى الاخرة ، ينقسم الى علم المعاملة وعلم المكاشفة . واعني بعلم المكاشفة ما يطلب منه كشف المعلوم فقط . واعني بعلم المعاملة ما يطلب منه ، مع الكشف ، العمل به . والمقصود من هذا الكتاب علم المعاملة فقط ، دون علم المكاشفة ، التي لا رخصة في ايداعها الكتب ! . . . »

من داخل الحواس ، فيكون ذلك كتفجر الماء من عمق الارض . ومهما اقبل على الخيالات الحاصلة من المحسوسات ، كان ذلك حجاباً له عن مطالعة اللوح المحفوظ ، كما ان الماء ، اذا اجتمع في الانهار ، منع ذلك من التفجر في الارض ، وكما ان من نظر الى الماء الذي يحكي صورة الشمس ، لا يكون ناظراً الى نفس الشمس .

(الاحياء : ربع المهلكات : كتاب عجائب القلب)

معرفة عيوب النفس

اعلم ان الله ، عز وجل ، اذا اراد بعبد خيراً ، بصره بعيوب نفسه . فمن كانت بصيرته نافذة ، لم تخف عليه عيوبه ، فاذا عرف العيوب امكنه العلاج . ولكن اكثر الخلق جاهلون بعيوب انفسهم ، يرى احدهم القذى في عين اخيه ، ولا يرى الجذع في عين نفسه . فمن اراد ان يعرف عيوب نفسه ، فله اربعة طرق :

الاول : ان يجلس بين يدي شيخ بصير بعيوب النفس ، مطلع على خفايا الآفات ، ويحكمه في نفسه ، ويتبع اشارته في مجاهدته . وهذا شأن المريد مع شيخه ، والتلميذ مع استاذه ، فيعرفه استاذه وشيخه عيوب نفسه ، ويعرفه طريق علاجه . وهذا قد عز في هذا الزمان وجوده .

الثاني : ان يطلب صديقاً صدوقاً ، بصيراً متديناً ، فينصبه رقيباً على نفسه ، ليلاحظ احواله وافعاله ، فما كره من اخلاقه وافعاله ، وعيوبه الباطنة والظاهرة ، ينبهه عليه . . .

الثالث : ان يستفيد معرفة عيوب نفسه من السنة اعدائه ، فان عين السخط تبدي المساويا . . .

الرابع : ان يخالط الناس ، فكل ما رآه مذموماً فيما بين الخلق ، فليطالب نفسه به ، وينسبها اليه .

(الاحياء : ربع المهلكات : كتاب رياضة النفس)

رياضة المريد

انَّ له شروطاً لا بد من تقديمها في بداية الارادة ، وله معتصم لا بد من التمسك به ، وله حصن لا بد من التحصن به ليأمن من الاعداء القطاع لطريقه ، وعليه وظائف لا بد من ملازمتها في وقت سلوك الطريق .

اما الشروط ، التي لا بد من تقديمها في الارادة ، فهي رفع السدّ والحجاب ، الذي بينه وبين الحق . . . والسد بين المريد وبين الحق اربعة : المال ، والجاه ، والتقليد ، والمعصية .

وانما يرفع حجاب المال بخروجه عن ملكه ، حتى لا يبقى له الا قدر الضرورة ، فما دام يبقى له درهم يلتفت اليه قلبه ، فهو مقيد به ، محجوب عن الله عز وجل .

وانما يرتفع حجاب الجاه بالبعد عن موضع الجاه ، بالتواضع وايثار الخمول ، والهرب من اسباب الذكر ، وتعاطي اعمال تنفر قلوب الخلق عنه .

وانما يرتفع حجاب التقليد ، بان يترك التعصب للمذاهب . . . فان غلب عليه التعصب لمعتقده ، ولم يبقَ في نفسه متسع لغيره ، صار ذلك قيداً له وحجاباً ، اذ ليس من شرط المريد الانتماء الى مذهب معين اصلاً .

واما المعصية فهي حجاب ، ولا يرفعها الا التوبة ، والخروج من المظالم ، وتصميم العزم على ترك العود ، وتحقيق الندم على ما مضى . . .

فاذا قدّم هذه الشروط الاربعة . . . يحتاج الى شيخ واستاذ يقتدي به . . . فاذا وجد مثل هذا المعتصم ، وجب على معتصمه ان يحميه ،

ويعصمه بحصن حصين ، يدفع عنه قواطع الطريق ، وهو اربعة امور : الخلوة والصمت والجوع والسهر . . .

واما الجوع فانه ينقص دم القلب ويبيضه ، وفي بياضه نوره ، ويذيب شحم الفؤاد ، وفي ذوبانه رقته ، ورقته مفتاح المكاشفة . . . وقال عيسى عليه السلام : يا معشر الحواريين ، جوعوا بطونكم ، لعل قلوبكم ترى ربكم . . .

واما السهر فانه يجلو القلب ويصفيه ، وينوره ، فيضاف ذلك الى الصفاء الذي حصل من الجوع . . .

واما الصمت فانه تسهله العزلة ، ولكن المعتزل لا يخلو عن مشاهدة من يقوم لـه بطعامه وشرابه وتدبير امره ، فينبغي ان لا يتكلم الا بقدر الضرورة ، فان الكلام يشغل القلب ، وشره القلوب الى الكلام عظيم . . .

واما الخلوة ففائدتها دفع الشواغل ، وضبط السمع والبصر ، فانهما دهليز القلب ، والقلب في حكم حوض ، تنصب اليه مياه كريهة كدرة قذرة من انهار الحواس ، ومقصود الرياضة تفريغ الحوض من تلك المياه ، ومن الطين الحاصل منها ، ليتفجر اصل الحوض ، فيخرج منه الماء النظيف الطاهر . . . وليس يتم ذلك الا بالخلوة في بيت مظلم ، وان لم يكن له مكان مظلم ، فليلف رأسه في جيبه ، او يتدثر بكساء او ازار ، ففي مثل هذه الحالة يسمع نداء الحق ، ويشاهد جلال الحضرة الربوبية . .

فهذه الاربعة جنة وحصن بها تدفع عنه القواطع ، وتمنع العوارض القاطعة للطريق ، فاذا فعل ذلك ، اشتغل بعده بسلوك الطريق . وانما سلوكه بقطع العقبات ، ولا عقبة على طريق الله تعالى الا صفات القلب ، التي سببها الالتفات الى الدنيا . . .

(الاحياء : ربع المهلكات : كتاب رياضة النفس)

آفات النكاح وفوائده

وفيه فوائد خمسة : الولد ، وكسر الشهوة ، وتدبير المنزل ، وكثرة العشيرة ، ومجاهدة النفس بالقيام بهنّ .

الفائدة الاولى الولد ، وهو الاصل ، وله وُضع النكاح[1] ، والمقصود ابقاء النسل ، وان لا يخلو العالم عن جنس الانس ، وانما الشهوة خلقت باعثة مستحثّة . . .

الفائدة الثانية التحصّن عن الشيطان ، وكسر التوقان ، ودفع غوائل الشهوة ، وغضّ البصر . . .

الفائدة الثالثة ترويح النفس ، وايناسها بالمجالسة والنظر ، والملاعبة اراحة للقلب ، وتقوية له على العبادة . فان النفس ملول ، وهي عن الحق نفور ، لانه على خلاف طبعها ، فلو كلفت المداومة بالاكراه على ما يخالفها جمحت وثابت ، واذا روّحت باللذات في بعض الاوقات قويت ونشطت . وفي الاستئناس بالنساء من الاستراحة ما يزيل الكرب ، ويروح القلب ، وينبغي ان يكون لنفوس المتقين استراحات بالمباحات . . .

الفائدة الرابعة تفريغ القلب عن تدبير المنزل ، والتكفل بشغل الطبخ والكنس والفرش وتنظيف الاواني ، وتهيئة اسباب المعيشة . . .

الفائدة الخامسة مجاهدة النفس ورياضتها بالرعاية والولاية ، والقيام بحقوق الاهل ، والصبر على اخلاقهن ، واحتمال الاذى منهن ، والسعي في اصلاحهن وارشادهن الى طريق الدين ، والاجتهاد في كسب الحلال لاجلهن ، والقيام بتربيته لاولاده . فكل هذه اعمال عظيمة الفضل . . .

اما آفات النكاح فثلاث :

الاولى ، وهي اقواها ، العجز عن طلب الحلال . فان ذلك لا يتيسر

---

١) النكاح هو الزواج الشرعي .

لكل احد ، لا سيما في هذه الاوقات ، مع اضطراب المعايش ، فيكون النكاح سبباً في التوسع للطلب ، والاطعام من الحرام ، وفيه هلاكه وهلاك اهله . والمتعزب في أمن من ذلك ، واما المتزوج ففي الاكثر يدخل في مداخل السوء فيتبع هوى زوجته ، ويبيع آخرته بدنياه . .

الآفة الثانية القصور عن القيام بحقهن ، والصبر على اخلاقهن ، واحتمال الاذى منهن . وهذه دون الاولى في العموم ، فان القدرة على هذا ايسر من القدرة على الاولى . وتحسين الخلق مع النساء ، والقيام بحظوظهن اهون من طلب الحلال . . .

الآفة الثالثة ، وهي دون الاولى والثانية ، ان يكون الاهل والولد شاغلاً له عن الله تعالى ، وجاذباً له الى طلب الدنيا ، وحسن تدبير المعيشة للاولاد بكثرة جمع المال ، وادخاره لهم ، وطلب التفاخر والتكاثر بهم . وكل ما شغل عن الله من اهل ومال فهو مشؤوم على صاحبه . وليست اعني بهذا ان يدعو الى محظور ، فان ذلك مما اندرج تحت الآفة الاولى والثانية ، بل ان يدعوه الى التنعم بالمباح ، بل الى الاغراق في ملاعبة النساء ومؤانستهن ، والامعان في التمتع بهن . . .

فهذه مجامع الآفات والفوائد . فالحكم على شخص واحد بان الافضل له النكاح او العزوبة مطلقاً قصور عن الاحاطة بمجامع هذه الامور . بل تتخذ هذه الفوائد والآفات معتبرًا ومحكاً ، ويعرض المريد عليه نفسه ، فان انتفت في حقه الآفات ، واجتمعت الفوائد ، بأن كان له مال حلال ، وخلق حسن ، وجد في الدين تام لا يشغله النكاح عن الله ، وهو مع ذلك شاب محتاج الى تسكين الشهوة ، ومنفرد يحتاج الى تدبير المنزل والتحصن بالعشيرة ، فلا يُمارى في ان النكاح افضل له ، مع ما فيه من السعي في تحصيل الولد . فان انتفت الفوائد ، واجتمعت الآفات ، فالعزوبة افضل له . وان تقابل الامران ، وهو الغالب ، فينبغي

ان يوزن بالميزان القسط حظ تلك الفائدة في الزيادة من دينه ، وحظ تلك الآفات في النقصان منه ، فاذا غلب على الظن رجحان احدهما حكم به . واظهر الفوائد الولد وتسكين الشهوة ، واظهر الآفات الحاجة الى كسب الحرام ، والاشتغال عن الله.

(الاحياء : ربع العادات : الكتاب الثاني)

ذم الغنى ومدح الفقر

اعلم ان الناس قد اختلفوا في تفضيل الغني الشاكر على الفقير الصابر ، وقد اوردنا ذلك في كتاب الفقر والزهد[1] ، وكشفنا عن تحقيق الحق فيه . ولكنا في هذا الكتاب ندل على ان الفقر افضل واعلى من الغنى على الجملة ، من غير التفات الى تفصيل الاحوال . ونقتصر فيه على حكاية فصل ، ذكره الحرث المحاسبي في بعض كتبه ، في الرد على بعض العلماء من الاغنياء ، حيث احتج باغنياء الصحابة ، وبكثرة مال عبد الرحمن بن عوف ، وشبه نفسه بهم . . .

قال ، بعد كلام له في الرد على علماء السوء : بلغنا ان عيسى ابن مريم عليه السلام قال :

« يا علماء السوء ، تصومون وتصلون وتصدقون ، ولا تفعلون ما تؤمرون ، وتدرسون ما لا تعلمون ، فيا سوء ما تحكمون . تتوبون بالقول والاماني ، وتعلمون بالهوى ، وما يغني عنكم ان تنقوا جلودكم ، وقلوبكم دنسة . بحق اقول لكم ، لا تكونوا كالمنخل ، يخرج منه الدقيق الطيب ، وتبقى فيه النخالة . كذلك انتم تخرجون الحكم من افواهكم ، ويبقى الغل في صدوركم . يا عبيد الدنيا ، كيف يدرك

---

١) هو كتاب من ربع المنجيات

الآخرة من لا تنقضي من الدنيا شهوته ، ولا تنقطع منها رغبته . بحق اقول لكم ان قلوبكم تبكي من اعمالكم . جعلتم الدنيا تحت السنتكم ، والعمل تحت اقدامكم . بحق اقول لكم ، افسدتم آخرتكم ، فصلاح الدنيا احب اليكم من صلاح الآخرة ، فاي الناس اخسر منكم لو تعلمون . ويلكم حتام تصفون الطريق للمدلجين ، وتقيمون في محل المتحيرين ، كأنكم تدعون اهل الدنيا ليتركوها لكم ؟ مهلا ، مهلا ! ويلكم ، ماذا يغني عن البيت المظلم ، ان يوضع السراج فوق ظهره ، وجوفه موحش مظلم . كذلك لا يغني عنكم ان يكون نور العلم بافواهكم ، واجوافكم منه موحشة معطلة . يا عبيد الدنيا ، لا كعبيد اتقياء ، ولا كاحرار كرام ، توشك الدنيا ان تقلعكم عن اصولكم ، فتلقيكم على وجوهكم ، ثم تكبكم على مناخركم ، ثم تأخذ خطاياكم بنواصيكم ، ثم تدفعكم من خلفكم ، حتى تسلمكم الى الملك الديان عراة فرادى ، فيوقفكم على سوآتكم ، ثم يجزيكم بسوء اعمالكم ! » .

ثم قال الحرث ، رحمه الله : اخواني ، فهؤلاء علماء السوء ، شياطين الانس ، وفتنة على الناس ، رغبوا في عرض الدنيا ورفعتها ، وآثروها على الآخرة ، واذلوا الدين للدنيا .

(الاحياء : ربع المهلكات : كتاب ذم حب المال)

الرياء

الرياء طلب المنزلة في قلوب الناس ، بايرائهم خصال الخير . . . والمراءى به كثير ، وتجمعه خمسة اقسام . . . : البدن ، والزيّ ، والقول ، والعمل ، والاتباع والاشياء الخارجة . . .

القسم الاول الرياء في الدين بالبدن . وذلك باظهار النحول ، والصفار ،

ليوهم بذلك شدة الاجتهاد ، وعظم الحزن على امر الدين ، وغلبة خوف الآخرة ، وليدل بالنحول على قلة الاكل ، وبالصفار على سهر الليل . . . وكذلك يراني بتشعيث الشعر ، ليدل به على استغراق الهم بالدين ، وعدم التفرغ لتسريح الشعر . . .ويقرب من هذا خفض الصوت ، واغارة العينين ، وذبول الشفتين ، ليستدل بذلك على انه مواظب على الصوم ، وان وقار الشرع هو الذي خفض من صوته ، او ضعف الجوع هو الذي ضعف من قوته . وعن هذا قال المسيح ، عليه السلام : اذا صام احدكم ، فليدهن رأسه ، ويرجل شعره ، ويكحل عينيه . . .

الثاني الرياء بالهيئة والزي . اما الهيئة فبتشعيث الشعر ، وحلق الشارب ، واطراق الرأس في المشي ، والهدء في الحركة ، وابقاء اثر السجود على الوجوه ، وغلظ الثياب ، ولبس الصوف ، وتشميرها الى قريب من الساق ، وتقصير الاكمام ، وترك تنظيف الثوب ، وتركه مخرقاً . . . والمراؤون بالزي على طبقات . فمنهم من يطلب المنزلة عند اهل الصلاح باظهار الزهد ، فيلبس الثياب المخرقة ، الوسخة ، القصيرة ، الغليظة ، ليراني بغلظها ووسخها وقصرها وتخرقها ، انه غير مكترث بالدنيا ، ولو كلف ان يلبس ثوباً وسطاً نظيفاً ، مما كان السلف يلبسه ، لكان عنده بمنزلة الذبح . . . وطبقة اخرى يطلبون القبول عند اهل الصلاح ، وعند اهل الدنيا من الملوك والوزراء والتجار ، . . . فلذلك يطلبون الاصواف الدقيقة ، والاكسية الرقيقة ، والمرقعات المصبوغة ، والفوط الرفيعة ، فيلبسونها . ولعل قيمة ثوب احدهم قيمة ثوب احد الاغنياء ، ولونه وهيئته لون ثياب العلماء ، فيلتمسون القبول عند الفريقين . . .

الثالث الرياء بالقول . ورياء اهل الدين بالوعظ والتذكير ، والنطق بالحكمة ، وحفظ الاخبار والآثار ، لاجل الاستعمال في المحاورة . . . وتحريك الشفتين بالذكر في محضر الناس ، والامر بالمعروف والنهي عن

المنكر بمشهد الخلق ، واظهار الغضب للمنكرات ، واظهار الاسف على مقارفة الناس المعاصي ، وتضعيف الصوت في الكلام ، وترقيق الصوت بقراءة القرآن . . .

الرابع الرياء بالعمل . كمراآة المصلّي بطول القيام ، ومد الظهر ، وطول السجود والركوع واطراق الرأس ، وترك الالتفاتات ، واظهار الهدء والسكون ، وتسوية القدمين واليدين . . . وبالاخبات في المشي عند اللقاء ، كارخاء الجفون ، وتنكيس الرأس ، والوقار في الكلام ، حتى ان المراني قد يسرع في المشي الى حاجته ، فاذا طلع عليه احد من اهل الدين ، رجع الى الوقار ، واطراق الرأس . . .

الخامس المراآة بالاصحاب ، والزائرين ، والمخالطين . كالذي يتكلف ان يستزير عالماً من العلماء ، ليقال ان فلاناً زار فلاناً ، او عابداً من العباد ، ليقال ان اهل الدين يتبركون بزيارته ويترددون اليه ، او ملكاً من الملوك او عاملاً من عمّال السلطان ، ليقال انهم يتبركون به ، لعظم رتبته في الدين[1] . . .

فهذه مجامع ما يراني به المراؤون ، وكلهم يطلبون بذلك الجاه والمنزلة في قلوب العباد .

(الاحياء : ربع المهلكات : كتاب ذم الجاه والرياء)

---

١) ان ما يسرده الغزالي من مظاهر الرياء ، هو ايضاً ، في بعضه ، من مظاهر الفضيلة الصحيحة . وانما الفرق في النيّة .

السماع

بعد بحث طويل في اباحة الغناء وتحريمه ، يصل الغزالي الى هذه النتيجة :

ان السماع قد يكون حراماً محضاً ، وقد يكون مباحاً ، وقد يكون مكروهاً ، وقد يكون مستحباً . اما الحرام فهو لاكثر الناس من الشبان ، ومن غلبت عليهم شهوة الدنيا ، فلا يحرك السماع منهم الا ما هو الغالب على قلوبهم من الصفات المذمومة . واما المكروه فهو لمن لا يتزله على صورة المخلوقين ، ولكنه يتخذه عادة له في اكثر الاوقات ، على سبيل اللهو . واما المباح فهو لمن لا حظ له منه الا التلذذ بالصوت الحسن . واما المستحب فهو لمن غلب عليه حب الله تعالى ، ولم يحرك السماع منه الا الصفات المحمودة .

اما اهم آداب السامع ، في نظر الغزالي ، فهي :

١ — ان يكون مصغياً الى ما يقول القائل ، حاضر القلب ، قليل الالتفات الى الجوانب ، متحرزاً عن النظر الى وجوه المستمعين وما يظهر عليهم من احوال الوجد ، مشتغلاً بنفسه ومراعاة قلبه ، ومراقبة ما يفتح الله تعالى له من رحمته في سره ، متحفظاً عن حركة تشوش على اصحابه قلوبهم . بل يكون ساكن الظاهر ، هادئ الاطراف ، متحفظاً عن التنحنح والتثاؤب ، ويجلس مطرقاً رأسه ، كجلوسه في فكر مستغرق لقلبه ، متماسكاً عن التصفيق والرقص وسائر الحركات ، على وجه التصنع والتكلف والمراآة ، ساكتاً عن النطق ، في اثناء القول ، بكل ما عنه بدّ . فان غلبه الوجد ، وحركه بغير اختيار ، فهو فيه معذور وغير ملوم . ومهما رجع اليه الاختيار ، فليعد الى هدوئه وسكونه . . .

٢ — ان لا يقوم ، ولا يرفع صوته بالبكاء ، وهو يقدر على ضبط نفسه .

ولكن ان رقص أو تباكى فهو مباح ، اذا لم يقصد به المراآة ، لان التباكي استجلاب للحزن ، والرقص سبب في تحريك السرور والنشاط ، فكل سرور مباح . . . واما تمزيق الثياب فلا رخصة فيه الا عند خروج الامر عن الاختيار . ولا يبعد ان يغلب الوجد ، بحيث يمزق ثوبه وهو لا يدري ، لغلبة سكر الوجد عليه ، او يدري ولكن يكون كالمضطر الذي لا يقدر على ضبط نفسه . وتكون صورته صورة المكره ، اذ يكون له في الحركة او التمزيق متنفس ، فيضطر اليه اضطرار المريض الى الانين . . .

٣ — موافقة القوم في القيام ، اذا قام واحد منهم في وجد صادق من غير رياء وتكلف ، او قام باختيار من غير اظهار وجد ، وقامت له الجماعة . فلا بد من الموافقة ، فذلك من آداب الصحبة . وكذلك ان جرت عادة طائفة بتنحية العمامة ، على موافقة صاحب الوجد اذا سقطت عمامته ، او خلع الثياب اذا سقط عنه ثوبه بالتمزيق . فالموافقة في هذه الامور من حسن الصحبة والمعاشرة ، اذ المخالفة موحشة ، ولكل قوم رسم .

(الاحياء : ربع العادات : الكتاب الثامن)

الوجد

انه عبارة عن حالة يثمرها السماع . وهو وارد حق جديد ، عقيب السماع ، يجده المستمع من نفسه . وتلك الحالة لا تخلو عن قسمين ، فانها اما ان ترجع الى مكاشفات ومشاهدات ، هي من قبيل العلوم والتنبيهات ، واما ان ترجع الى تغيرات واحوال ، ليست من العلوم ، بل هي كالشوق والخوف ، والحزن والقلق والسرور ، والاسف والندم ، والبسط والقبض . وهذه الاحوال يهيجها السماع ويقويها ، فان ضعف بحيث لم يؤثر في تحريك الظاهر او تسكينه ، او تغيير حاله حتى يتحرك

على غير عادته ، او يطرق ، او يسكن عن النظر والنطق والحركة على خلاف عادته ، لم يسمّ وجداً . وان ظهر على الظاهر سمي وجداً ، اما ضعيفاً واما قوياً ، بحسب ظهوره وتغييره للظاهر .

(الاحياء : ربع العادات : الكتاب الثامن)

التوكل

التوكل عبارة عن اعتماد القلب على الوكيل وحده . . . فان ثبت في نفسك ، بكشف او باعتقاد جازم ، انه لا فاعل الا الله ، كما سبق ، واعتقدت مع ذلك تمام العلم ، والقدرة على كفاية العباد ، ثم تمام العطف والعناية والرحمة بجملة العباد والآحاد ، وانه ليس وراء منتهى قدرته قدرة ، ولا وراء منتهى علمه علم ، ولا وراء منتهى عنايته بك ورحمته لك عناية ورحمة ، اتكل لا محالة قلبك عليه وحده ، ولم يلتفت الى غيره بوجه ، ولا الى نفسه وحوله وقوته ، فانه لا حول ولا قوة الا بالله . . .

واذا انكشف لك معنى التوكل ، وعلمت الحالة التي سمّيت توكلاً فاعلم ان تلك الحالة لها في القوة والضعف ثلاث درجات :

الدرجة الاولى . . . ان يكون حاله في حق الله تعالى ، والثقة بكفالته وعنايته ، كحاله في الثقة بالوكيل .

الثانية ، وهي اقوى ، ان يكون حاله مع الله تعالى ، كحال الطفل مع امه . فانه لا يعرف غيرها ، ولا يفزع الى احد سواها ، ولا يعتمد الّاها ، فاذا رآها تعلق في كل حال بذيلها ، ولم يخلّها ، وان نابه امر في غيبتها ، كان اول سابق الى لسانه : يا اماه ! . .

الثالثة ، وهي اعلاها ، ان يكون بين يدي الله تعالى ، في حركاته وسكناته ، مثل الميت بين يدي الغاسل ، لا يفارقه الا في انه يرى

نفسه ميتاً ، تحركه القدرة الازلية كما تحرك يد الغاسل الميت. وهو الذي قوي يقينه بانه مجرى للحركة والقدرة والارادة والعلم وسائر الصفات ، وان كلًا يحدث جبرًا ، فيكون بائناً عن الانتظار لما يجري عليه. ويفارق الصبي، فان الصبي يفزع الى امه ، ويصيح ، ويتعلق بذيلها ، ويعدو خلفها. بل هو مثل صبي علم انه ، وان لم يزعق بامه ، فالام تطلبه ، وانه ، وان لم يتعلق بذيل امه ، فالام تحمله ، وان لم يسألها اللبن ، فالام تفاتحه وتسقيه . وهذا المقام في التوكل يشمر ترك الدعاء. والسؤال منه ، ثقة بكرمه وعنايته ، وانه يُعطي ابتداء افضل مما يسأل.

(الاحياء : ربع المنجيات : كتاب التوكل)

محبة الله

ان المحبة لله هي الغاية القصوى من المقامات ، والذروة العليا من الدرجات . فما بعد ادراك المحبة مقام الّا وهو ثمرة من ثمارها ، وتابع من توابعها ، كالشوق والانس والرضى واخواتهـا . ولا قبل المحبة مقام الا وهو مقدمة من مقدماتها ، كالتوبة والصبر والزهد وغيرها.

وسائر المقامات ، ان عز وجودها ، فلم تخلُ القلوب عن الايمان بامكانها . واما محبة الله تعالى فقد عز الايمان بهـا ، حتى انكر بعض العلماء امكانها ، وقال لا معنى لها الا المواظبة على طاعة الله تعالى . واما حقيقة المحبة فمحال الا مع الجنس والمثال. ولما انكروا المحبة ، انكروا الانس والشوق ولذة المناجاة ، وسائر لوازم الحب وتوابعه . ولا بد من كشف الغطاء عن هذا الامر . ونحن نذكر . . . بيان شواهد الشرع في المحبة ، ثم بيان حقيقتها واسبابها ، ثم بيان ان لا مستحق للمحبة الا الله تعالى . . .

١ – شواهد الشرع

اعلم ان الامة مجمعة على ان الحب لله تعالى ، ولرسول الله صلى الله عليه وسلم ، فرض . وكيف يفرض ما لا وجود له ؟ وكيف يفسر الحب بالطاعة ، والطاعة تبع الحب وثمرته ، فلا بد وان يتقدم الحب ، ثم بعد ذلك يطيع من احب .

ويدل على اثبات الحب لله تعالى قوله ، عز وجل . «يحبهم ويحبونه» ، وقوله تعالى : «والذين آمنوا اشد حباً لله» ، وهو دليل على اثبات الحب ، واثبات التفاوت فيه . . .

وفي الخبر المشهور ان ابرهيم ، عليه السلام ، قال لملك الموت ، اذ جاءه لقبض روحه : هل رأيت خليلاً يميت خليله ؟ فاوحى الله تعالى اليه : هل رأيت محباً يكره لقاء حبيبه ؟ فقال : يا ملك الموت ، الآن فاقبض !

ويروى ان عيسى ، عليه السلام ، مرّ بثلاثة نفر ، قد نحلت ابدانهم ، وتغيرت الوانهم ، فقال : ما الذي بلغ بكم ما ارى ؟ فقالوا : الخوف من النار . فقال : حق على الله ان يؤمن الخائف . ثم جاوزهم الى ثلاثة اخرين ، فاذا هم اشد نحولاً وتغيراً ، فقال : ما الذي بلغ بكم ما ارى ؟ قالوا : الشوق الى الجنة . فقال : حق على الله ان يعطيكم ما ترجون . ثم جاوزهم الى ثلاثة آخرين ، فاذا هم اشد نحولاً وتغيراً ، كأن على وجوههم المرائي من النور ، فقال : ما الذي بلغ بكم ما ارى ؟ قالوا : نحب الله ، عز وجل . فقال : انتم المقربون ، انتم المقربون ، انتم المقربون ! . . .

٢ – حقيقة المحبة واسبابها

اول ما ينبغي ان يتحقق انه لا يتصور محبة ، الّا بعد معرفة وادراك ، اذ لا يحب الانسان الا ما يعرفه . . .

الاصل الثاني ان الحب ، لما كان تابعاً للادراك والمعرفة ، انقسم لا محالة ، بحسب انقسام المدركات والحواس. فلكل حاسة ادراك لنوع من المدركات ، ولكل واحد منها لذة في بعض المدركات . . . قال رسول الله ، صلى الله عليه وسلم : « حبّب الي من دنياكم ثلاث : الطيب والنساء والصلاة ، وجعل قرة عيني في الصلاة . » فسمّى الطيب محبوباً ، ومعلوم انه لا حظ للعين والسمع فيه ، بل للشم فقط . وسمّى النساء محبوبات ، ولا حظ فيهن الا للبصر واللمس ، دون الشم والذوق والسمع . وسمّى الصلاة قرة عين ، وجعلها ابلغ المحبوبات ، ومعلوم انه ليس تحظى بها الحواس الخمس ، بل حس سادس ، مظنته القلب ، لا يدركه الا من كان له قلب . ولذات الحواس الخمس تشارك فيها البهائم الانسان ، فان كان الحب مقصوراً على مدركات الحواس الخمس ، حتى يقال ان الله تعالى لا يدرك بالحواس ، ولا يتمثل بالخيال ، فلا يحب ، فاذاً قد بطلت خاصية الانسان ، وما تميز به من الحس السادس ، الذي يعبر عنه اما بالعقل ، او بالنور او بالقلب . . . فلا ينكر اذاً حب الله تعالى الا من قعد به القصور في درجة البهائم . . .

ترجع اسباب الحب الى خمسة اسباب : وهو حب الانسان وجود نفسه ، وكماله وبقاءه ؛ وحبه من احسن اليه فيما يرجع الى دوام وجوده ، ويعين على بقائه ، ودفع المهلكات عنه ؛ وحبه من كان محسناً في نفسه الى الناس ، وان لم يكن محسناً اليه ؛ وحبه لكل ما هو جميل في ذاته ، سواء كان من الصور الظاهرة او الباطنة ؛ وحبه لمن بينه وبينه مناسبة خفيّة في الباطن . فلو اجتمعت هذه الاسباب في شخص واحد ، تضاعف الحب لا محالة . . . فان كانت هذه الصفات في اقصى درجات الكمال ، كان الحب لا محال في اعلى الدرجات . فلنبين الآن ان هذه الاسباب كلها لا يتصور كمالها واجتماعها الا في حق الله تعالى ، فلا يستحق المحبة بالحقيقة الا الله سبحانه وتعالى.

٣ – لا مستحق للمحبة الا الله

لا محبوب بالحقيقة عند ذوي البصائر الا الله تعالى ، ولا مستحق للمحبة سواه. وايضاحه بان نرجع الى الاسباب الخمسة ، التي ذكرناها ، ونبين انها مجتمعة في حق الله تعالى بجملتها ، ولا يوجد في غيره الا آحادها ، وانها حقيقة في حق الله ، ووجودها في حق غيره وهم وتخيّل . . .

فاما السبب الاول ، وهو حب الانسان نفسه وبقاءه وكماله ودوام وجوده ، وبغضه لهلاكه وعدمه ونقصانه وقواطع كماله ، فهذه جبلة كل حي ، ولا يتصور ان ينفك عنها . وهذا يقتضي غاية المحبة لله تعالى ، فان من عرف نفسه ، وعرف ربه ، عرف قطعاً انه لا وجود له من ذاته ، وانما وجود ذاته ، ودوام وجوده ، وكمال وجوده ، من الله ، والى الله ، وبالله . . .

والسبب الثاني ، وهو حبه من احسن اليه ، . . . يقتضي ان لا يحب الا الله تعالى . فانه لو عرف حق المعرفة ، لعلم ان المحسن اليه هو الله تعالى فقط . . .

والسبب الثالث ، وهو حبك المحسن في نفسه ، . . . يقتضي حب الله تعالى ، بل يقتضي ان لا يحب غيره اصلاً ، الا من حيث يتعلق منه بسبب . فان الله هو المحسن الى الكافة ، والمتفضل على جميع اصناف الخلائق . . .

واما السبب الرابع ، وهو حب كل جميل لذات الجمال ، لا لحظ ينال منه وراء ادراك الجمال ، فقد بيّنا ان ذلك مجبول في الطباع . وان . . . جمال صفات الصديقين ، الذين تحبهم القلوب طبعاً ، ترجع الى ثلاثة امور : احدها علمهم بالله وملائكته . . . والثاني قدرتهم على اصلاح انفسهم واصلاح عباد الله بالارشاد والسياسة . والثالث تنزههم عن الرذائل والخبائث . . . فانسب هذه الصفات الى صفات الله تعالى :

اما العلم فاين علم الاولين والآخرين من علم الله ؟..

واما صفة القدرة فهي ايضاً كمال... ولا حول ولا قوة الا بالله...

واما صفة التنزه عن العيوب والنقائص... فلا يتصور كمال التقدس والتنزه الا الواحد الحق...

واما السبب الخامس للحب فهو المناسبة والمشاكلة ، لان شبه الشيء منجذب اليه ، والشكل الى الشكل اميل... ولذلك... قال (النبي): « الارواح جنود مجندة ، فما تعارف منها ائتلف ، وما تناكر منها اختلف »... وهذا السبب ايضاً يقتضي حب الله تعالى ، لمناسبة باطنة...

فهذه هي المعلومة من اسباب الحب ، وجملة ذلك متظاهرة في حق الله تعالى ، تحقيقاً لا مجازاً ، وفي اعلى الدرجات لا في ادناها.

(الاحياء : ربع المنجيات : كتاب المحبة)

الاخلاص

اعلم ان كل شيء يتصور ان يشوبه غيره. فاذا صفا عن شوبه وخلص عنه ، سمّي خالصاً. ويسمّى الفعل المصفّى المخلص اخلاصاً... ومن كان غرضه محض التقرب الى الله تعالى فهو مخلص...

وانما نتكلم الآن فيمن انبعث لقصد التقرب ، ولكن امتزج بهذا الباعث باعث آخر ، اما من الرياء ، او من غيره من حظوظ النفس. ومثال ذلك ان... يحجّ ، ليصح مزاجه بحركة السفر ، او يتخلص من شر يعرض له في بلده ، او ليهرب عن عدو في منزله ، او يتبرم باهله وولده ، او بشغل هو فيه ، فاراد ان يستريح منه اياماً... او يتعلم العلم ليسهل عليه طلب ما يكفيه من المال... او توضأ لينتظف او يتبرد ،... او يفعل شيئاً من ذلك ليعرف بالخير ، ويذكر به ، وينظر اليه بعين الصلاح والوقار.

فهما كان باعثه هو التقرب الى الله تعالى ، ولكن انضاف اليه خطرة من هذه الخطرات ، حتى صار العمل اخف عليه بسبب هذه الامور ، فقد خرج عمله عن حد الاخلاص ، وخرج عن ان يكون خالصاً لوجه الله تعالى ، وتطرق اليه الشرك . وقد قال تعالى : انا اغنى الشركاء عن الشركة .

وبالجملة كل حظ من حظوظ الدنيا ، تستريح اليه النفس ، ويميل اليه القلب ، قلّ ام كثر ، اذا تطرق الى العمل ، تكدر به صفوه ، وزال به اخلاصه . والانسان مرتبط في حظوظه ، منغمس في شهواته ، فلما ينفك فعل من افعاله ، وعبادة من عباداته ، عن حظوظ واغراض عاجلة من هذه الاجناس . فلذلك قيل : من سلم له من عمره لحظة واحدة ، خالصة لوجه الله ، نجا ! وذلك لعزّة الاخلاص ، وعسر تنقية القلب عن هذه الشوائب . بل الخالص هو الذي لا باعث عليه الا طلب القرب من الله تعالى . . . وهذا لا يتصور الا من محب لله ، مستهتر بالله ، مستغرق الهم بالآخرة ، بحيث لم يبقَ لحب الدنيا في قلبه قرار . حتى لا يحب الاكل والشرب ايضاً ، بل تكون رغبته فيه كرغبته في قضاء الحاجة ، من حيث انه ضرورة الجبلة ، فلا يشتهي الطعام لانه طعام ، بل لانه يقوّيه على عبادة الله تعالى . . . فمثل هذا الشخص لو أكل ، او شرب ، . . . كان خالص العمل ، صحيح النية ، في جميع حركاته وسكناته . فلو نام مثلاً حتى يريح نفسه ، ليتقوى على العبادة بعده ، كان نومه عبادة ، وكان له درجة المخلصين فيه . . .

وكم من اعمال يتعب الانسان فيها ، ويظن انها خالصة لوجه الله ، ويكون فيها مغروراً ، لانه لا يرى وجه الآفة فيها . كما حكي عن بعضهم انه قال : « قضيت صلاة ثلاثين سنة ، صليتها في المسجد ، في الصف لاول . لاني تأخرت يوماً لعذر ، فصليت في الصف الثاني ، فاعترتني خجلة من الناس ، حيث رأوني في الصف الثاني . فعرفت ان نظر الناس

الي في الصف الاول كان مسرتي ، وسبب استراحة قلبي ، من حيث لا اشعر ا »

(الاحياء : ربع المنجيات : كتاب الاخلاص)

المعاد

لقد كفّر الغزالي الفلاسفة لانكارهم المعاد الجسماني . واليك بعض ما جاء للغزالي في وصف المعاد ، وجلّه في المعاد الجسماني :

تفكّر في اهل الجنة ، وفي وجوههم نضرة النعيم . يسقون من رحيق مختوم ، جالسين على منابر الياقوت الاحمر ، في خيام من اللؤلؤ الرطب الابيض ، فيها بسط من العبقري[1] الاخضر ؛ متكئين على ارائك منصوبة على اطراف انهار مطّردة بالخمر والعسل ، محفوفة بالغلمان والولدان ، مزينة بالحور العين ، من الخيّرات الحسان ، كانهن الياقوت والمرجان ، لم يطمثهن انس قبلهم ولا جان . يمشين في درجات الجنان ، اذا اختالت احداهن في مشيها ، حمل اعطافها سبعون الفاً من الولدان ، عليها من طرائف الحرير الابيض ما تتحير فيه الابصار . مكلّلات بالتيجان ، المرصّعة باللؤلؤ والمرجان . شكلات ، غنجات ، عطرات ، آمنات من الهرم والبؤس ، مقصورات في الخيام ، في قصور من الياقوت ، بنيت وسط روضات الجنان . قاصرات الطرف ، عين .

ثم يطاف عليهم وعليهن باكواب واباريق ، وكأس من معين بيضاء ، لذة للشاربين . ويطوف عليهم خدام وولدان ، كامثال اللؤلؤ المكنون ، جزاء بما كانوا يعملون .

في مقام امين ، في جنات وعيون ، في جنات ونهر ، في مقعد صدق ، عند مليك مقتدر ، ينظرون فيها الى وجه الملك الكريم ، وقد اشرقت

---

١) نوع من البسط الفاخرة

في وجوههم نضرة النعيم ، لا يرهقهم قتر ولا ذلة ، بل عباد مكرّمون ، وبانواع التحف من ربهم يتعاهدون ، فهم فيما اشتهت انفسهم خالدون ، لا يخافون فيها ولا يحزنون.

وهم من ريب المنون آمنون ، فهم فيها يتنعمون ، ويأكلون من اطعمتها ، ويشربون من انهارها لبناً وخمرًا وعسلًا ، في انهار اراضيها من فضة ، وحصباؤها مرجان ، وعلى ارض ترابها مسك اذفر[1] ، ونباتها زعفران . ويطرون من سحاب ، فيها من ماء النسرين ، على كثبان الكافور . ويؤتون باكواب — وايّ اكواب ! — باكواب من فضة ، مرصّعة بالدر والياقوت والمرجان : كوب فيه من الرحيق المختوم ، ممزوج به السلسبيل العذب ! كوب يشرق نوره ، من صفاء جوهره ، يبدو الشراب من ورائه برقته وحمرته ، لم يصنعه آدميّ فيقصّر في تسوية صنعته ، وتحسين صناعته ، في كف خادم يحكي ضياء وجهه الشمس في اشراقها ولكن من اين للشمس مثل حلاوة صورته ، وحسن اصداغه ، وملاحة احداقه ؟ . .

وسئل رسول الله ، صلّى الله عليه وسلّم ، عن قوله : « ومساكن طيبة في جنات عدن » ، قال : قصور من لؤلؤ ، في كل قصر سبعون دارًا من ياقوت احمر ، في كل دار سبعون بيتاً من زمرد اخضر ، في كل بيت سرير ، على كل سرير سبعون فراشاً من كل لون ، على كل فراش زوجة من الحور العين ، في كل بيت سبعون مائدة ، على كل مائدة سبعون لوناً من الطعام ، في كل بيت سبعون وصيفة ، ويعطى المؤمن في كل غداة ، يعني من القوة ، ما يأتي على ذلك اجمع ! . .

وقال رسول الله ، صلّى الله عليه وسلّم : ان الرجل من اهل الجنة

---

١) اذفر : طيّب الرائحة

ليتزوج خمسمائة حوراء ، واربعة آلاف بكر ، وثمانية آلاف ثيب ، يعانق كل واحدة منهن مقدار عمره في الدنيا . . .

قال الله تعالى : « للذين احسنوا الحسنى ، وزيادة ! » . وهذه الزيادة هي النظر الى وجه الله تعالى ، وهي اللذه الكبرى ، التي يُنسى فيها نعيم اهل الجنة . . . قال جرير بن عبد الله البجلي : كنا جلوساً عند رسول الله ، صلّى الله عليه وسلّم ، فرأى القمر ليلة البدر ، فقال : انكم ترون ربكم ، كما ترون هذا القمر ، لا تُضامون في رؤيته ! . . . وليس لسرور اهل الجنة ، عند سعادة اللقاء ، منتهى . بل لا نسبة لشيء من لذات الجنة الى لذة اللقاء . وقد اوجزنا في الكلام هنا ، لما فصلناه في كتاب المحبة والشوق والرضى . فلا ينبغي ان تكون همة العبد من الجنة بشيء ، سوى لقاء المولى ، واما سائر نعيم الجنة ، فانه يشارك فيه البهيمة المسرحة في المرعى[1] !

(الاحياء : ربع المنجيات : كتاب الموت وما بعده)

الغزالي والانجيل

في كتب الغزالي كثير من آيات الانجيل ، وفيها اقوال مشابهة لاقوال انجيلية ، وفيها اقوال منسوبة الى المسيح غير موجودة في الانجيل . وانا نثبت لك بعض هذه الاقوال ، ونثبت لك النص الاصيل مقابلها :

---

١) ألا يكاد يعود الغزالي هنا الى رأي الفلاسفة ، الذين كفّرهم ؟ !

١ – آيات متماثلة

قال عيسى المسيح ، صلى الله عليه وسلم : اذا كان صوم احدكم ، فليدهن رأسه ولحيته ، ويمسح شفتيه ، لئلا يرى الناس انه صائم ،

واذا اعطى بيمينه فليخفِ عن شماله ،

واذا صلى فليرخِ ستر بابه ، فان الله يقسم الثناء كما يقسم الرزق .

(الاحياء : ٣ : ص ٢٠٢)

اما انت فمتى صمت ، فادهن رأسك ، واغسل وجهك ، لكي لا تظهر للناس صائماً ، بل لابيك الذي في الخفاء .

واما انت فمتى صنعت صدقتك ، فلا تعرف شمالك ما تفعل يمينك .

فمتى صليت فادخل الى مخدعك ، واغلق بابك ، وصلِّ الى ابيك الذي في الخفاء ، فابوك الذي يرى في الخفاء يجازيك علانية .

(متى : ٦ : ١٧ ، ١٨ ، ٣ ، ٣٦)

قال عيسى ، عليه السلام : مثل علماء السوء كمثل شجرة وقعت على فم النهر ، لا هي تشرب الماء ، ولا هي تترك الماء يخلص الى الزرع .

ومثل علماء السوء مثل قناة الحش ، ظاهرها جص وباطنها نتن ، ومثل القبور ظاهرها عامر وباطنها عظام موتى .

(الاحياء : ١ : ص ٤٥)

ويل لكم ايها الكتبة والفريسيون المراؤون ، لانكم تغلقون ملكوت السماوات قدام الناس ، فلا تدخلون ولا تدعون الداخلين يدخلون .

ويل لكم ايها الكتبة والفريسيون المراؤون ، لانكم تشبهون قبوراً مجصصة ، تظهر من خارج جميلة ، وهي من داخل مملوءة عظام اموات .

(متى : ٢٣ : ١٣ ، ٢٧)

قال المسيح عليه السلام : طوبى للمتواضعين في الدنيا هم اصحاب المنابر يوم القيامة ،

طوبى للمصلحين بين الناس في الدنيا ، هم الذين يرثون الفردوس يوم القيامة ،

طوبى للمطهرة قلوبهم في الدنيا ، هم الذين ينظرون الى الله تعالى يوم القيامة

(الاحياء : ٣ : ٢٢٧)

ورأيت في الانجيل : قال عيسى ابن مريم ، عليه السلام : لقد قيل لكم ، من قبل ، ان السن بالسن ، والانف بالانف . وانا اقول لكم : لا تقاوموا الشر بالشر ، بل من ضرب خدك الايمن فحوّل اليه الخد الايسر ، ومن اخذ ردائك فاعطه ازارك ، ومن سخرك لتسير ميلًا ، فسر معه ميلين .

(الاحياء : ٤ : ٥٢)

قال عيسى ، عليه السلام : لا تتخذوا الدنيا ربًا ، فتتخذكم عبيدًا . اكتزوا كنزكم عند من لا يضيعه ، فان صاحب كنز الدنيا يخاف عليه الآخذ ، وصاحب كنز الله لا يخاف عليه الآخذ .

(الاحياء : ٣ : ١٢٩)

طوبى للمساكين بالروح لان لهم ملكوت السماوات ،

طوبى للوداعاء ، لانهم يرثون الارض ،

طوبى للانقياء القلب لانهم يعاينون الله .

(متى : ٥ : ٣ ، ٤ ، ٨)

سمعتم انه قيل عين بعين ، وسن بسن . واما انا فاقول لكم : لا تقاوموا الشر ! بل من لطمك على خدك الايمن ، فحوّل له الاخر ايضاً . ومن اراد ان يخاصمك ويأخذ ثوبك فاترك له الرداء ايضاً . ومن سخرك ميلًا واحدًا ، فاذهب معه اثنين .

(متى : ٥ : ٣٨-٤١)

لا تكتزوا لكم كنوزًا على الارض ، حيث يفسد السوس والصدأ ، وحيث ينقب السارقون ويسرقون . بل اكتزوا لكم كنوزًا في السماء ، حيث لا يفسد سوس ولا صدأ ، وحيث لا ينقب سارقون ولا يسرقون ، لانه حيث يكون كنزك هناك يكون قلبك .

(متى : ٦ : ١٩-٢١)

قال عيسى عليه السلام : لا يستقيم حب الدنيا والآخرة في قلب مؤمن ، كما لا يستقيم الماء والنار في اناء واحد.

(الاحياء : ٣ : ١٤٠)

قال عيسى :

انظروا الى الطير لا تزرع، ولا تحصد ، ولا تدخر، والله تعالى يرزقها يوماً بيوم . فان قلتم : نحن اكبر بطوناً ، فانظروا الى الانعام كيف قيض الله تعالى لها هذا الخلق للرزق.

(الاحياء : ٤ : ١٩٠)

لا يقدر احد ان يخدم سيدين ، لانه اما ان يبغض الواحد ويحب الآخر ، او يلازم الواحد ويحتقر الآخر . لا تقدرون ان تخدموا الله والمال.

(متى : ٦ : ٢٤)

انظروا الى طيور السماء انها لا تزرع ولا تحصد ، لا تجمع الى مخازن، وابوكم السماوي يقوتها ، ألستم انتم بالحري افضل منها ؟ تأملوا زنابق الحقل كيف تنمو لا تتعب ولا تغزل ، ولكن اقول لكم انه ولا سليمان في كل مجده كان يلبس كواحدة منها.

(متى : ٦ : ٢٦)

٣ – اقوال منسوبة للمسيح ، وليست له :

– كم من جسد صحيح ، ووجه صبيح ، ولسان فصيح ، غدا بين اطباق النار يصيح. (الاحياء : ٤ : ٢٨٢)

– من الذي يبني على موج البحر داراً ؟ تلكم الدنيا ، فلا تتخذوها قراراً. (الاحياء : ٣ : ١٤١)

– يا معشر الحواريين ، جوّعوا بطونكم ، لعل قلوبكم ترى ربكم. (الاحياء : ٣ : ١٥٦)

– لا تنظروا الى اموال اهل الدنيا ، فان بريق اموالهم يذهب بنور ايمانكم. (الاحياء : ٣ : ١٤٤)

– مثل طالب الدنيا مثل شارب ماء البحر ، كلما ازداد شرباً ، ازداد عطشاً ، حتى يقتله. (الاحياء : ٣ : ١٦٤)

❖❖❖

– صحب رجل عيسى بن مريم ، عليه السلام ، فقال : اكون معك واصحبك . فانطلقا ، فانتهيا الى شط نهر ، فجلسا يتغديان ، ومعهما ثلاثة ارغفة ، فاكلا رغيفين ، وبقي رغيف ثالث . فقام عيسى ، عليه السلام ، الى النهر فشرب ، ثم رجع ، فلم يجد الرغيف ، فقال للرجل : من اخذ الرغيف ؟ فقال : لا ادري (قال) فانطلق ومعه صاحبه ، فرأى ظبية ، ومعها خشفان لها . . . فدعا احدهما ، فاتاه ، فذبحه ، فاشتوى منه ، فاكل هو وذاك الرجل . ثم قال للخشف : قم باذن الله ! فقام . فقال للرجل : اسألك بالذي اراك هذه الآية : من اخذ الرغيف ؟ فقال : لا ادري . فانتهيا الى مغارة ، فجلسا ، فاخذ عيسى ، عليه السلام ، يجمع تراباً وكثيباً ، ثم قال : كن ذهباً باذن الله تعالى ! فصار ذهباً . فقسمه ثلاثة اثلاث ثم قال : ثلث لي ، وثلث لك ، وثلث لمن اخذ الرغيف . فقال : انا الذي اخذت الرغيف . فقال : كله لك . وفارقه عيسى ، عليه السلام.

(الاحياء : ٣ : ١٨٨)

نستغفر الله

ونحن نستغفر الله تعالى من كل ما زلّت به القدم ، او طغى به القلم ، في كتابنا هذا[1] ، وفي سائر كتبنا .

ونستغفره من اقوالنا ، التي لا توافقها اعمالنا .

ونستغفره مما ادّعيناه ، واظهرناه من العلم والبصيرة بدين الله تعالى ، مع التقصير فيه .

ونستغفره من كل علم وعمل ، قصدنا به وجهه الكريم ، ثم خالطه غيره .

ونستغفره من كل وعد وعدناه به من انفسنا ، ثم قصّرنا في الوفاء به .

ونستغفره من كل نعمة انعم بها علينا ، فاستعملناها في معصيته .

ونستغفره من كل تصريح وتعريض بنقصان ناقص ، وتقصير مقصّر ، كنا متصفين به .

ونستغفره من كل خطرة دعتنا الى تصنّع وتكلّف ، تزيّنا للناس ، في كتاب سطّرناه ، او كلام نظمناه ، او علم افدناه او استفدناه .

(الاحياء : في صفحات الختام)

---

١) كتاب الاحياء

فلاسفة العرب

ظهر :

مقدمات في التصوف
ابن الفارض : دراسة – شعر مختار

ابو العلاء المعري في لزومياته : دراسة – شعر مختار

ابن خلدون : دراسة – مختارات

الغزالي ، الجزء الأول : دراسة – مختارات

يظهر قريباً :

ابن رشد : دراسة – مختارات

تمّ طبع هذا الكتاب
في العشرين من شهر تشرين الثاني
سنة ١٩٦٧

المطبعة الكاثوليكية
بيروت

A.U.C. LIBRARY

DATE DUE

A.U.B. LIBRARY

AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES

00524534